

حسام علوان

ثمن سفر وحيدة

عن رغبتنا إننا نكمل
ونبدأ من جديد



شحنة سفر وحيدة



عن رغبتنا إننا نكمل
ونبدأ من جديد





لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © حسام علوان ٢٠١٨

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

علوان، حسام.

شنطة سفر وحيدة: عن رغبتنا إننا نكمل ونبدأ من جديد / حسام علوان – القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٨.

٢٠٨ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776467903

١ – القصص العربية القصيرة

أ – العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٣٧٥ / ٢٠١٧

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

المحتويات

٧	كَمَل
١٠	حرب المدينة
١١	قبل السفر
١٦	شنطة سفر وحيدة
٢٠	أعلى الساعات
٢٢	دم أزرق: حكايات عن العنصرية
٣٤	النصائح الاثنتا عشرة للحياة السعيدة
٣٥	تعويم
٣٧	وسط البلد
٤٠	محاضرة في أثينا
٤٥	بيروح فين الحب لما ينتهي؟
٤٦	بنطلون مقطوع
٥١	حكايات إيطالية
٨١	أربع حكايات عن أصدقاء عابرين

٨٧	أربع حكايات عن سان فرانسيسكو
٩٣	راديو موجات قصيرة
٩٦	حكايات لوس أنجلوس
١١٠	البحث عن سكن
١١٦	شقة في سوق فكية
١٢٤	حكايات الميكروباصات
١٣٧	حكايات عن التاكسيات
١٥٢	النصائح العشر لشمس تبريزي
١٥٥	مقاطع من قصة طويلة قصيرة
١٦٦	السؤال
١٦٧	عم محمود
١٧٣	المدينة بدونها
١٧٨	قصة في رسالة من سبعة مقاطع
١٨٧	زوزو
١٩٠	هوس الورد
١٩٤	مغادرة
٢٠٣	أنا أحبك بدون ولكن

دا كتاب عن رغبتنا إننا نكمل، وعن المشي كرحلة للدخل، عن الرغبة إننا نبدأ من جديد لما الدنيا تقفل في وشنا، وما يقاش قدامنا غير طريق البدايات. بدأت الكتابة دي في ٢٠١٣، في فترة تحبب بتنتهي فيها علاقات قديمة استمرت سنين وما بتبتديش علاقات جديدة، في فترة رجعتني لسنواتي الأولى في القاهرة لما كنت وحيد بدون سكن ولا أصدقاء، وكل حاجة كنت بامسكها كانت بتتحول لتراب في أيدي، وكنت باعيش حالة من فقدان والإحساس بالفشل لسه أثرها معايا لغاية النهارده.

كنت عاوز أحكي وألاقي حد يسمعني، وكنت محتاج أتخلص من زخارف اللغة عشان أقرب من الناس. كنت عاوز أبص برايا عشان ألاقيني، وكنت محتاج أقرب من نفسي قبل ما أقرب من حد تاني. ومن هنا قربت من تجربة الكتابة والحكي بالعامية.

في أوائل ٢٠١٣، كنت باشطب شقتي، وكنت قررت بعد الفشل الذريع في التعامل مع العمال، زي فشلي بالظبط في أغلب علاقتي، إني أعمل اللي أقدر عليه بنفسي، الفرق الوحيد إن في العلاقات مش كل حاجة تقدر تعملها لوحدهك. نزلت أشتري خامات للشقة من سوق السيدة عيشة، وأنا متعفر ولبسي كله جير وأسمنت. الموان شافني وسألني: «عايز إيه يا أسطى؟»، وما عجبتهوش طريقتي في طلب الحاجات: «بروة ومنجفرة وأجنة»، وقال: «مهنة المعمار دي ما باظتش من شوية»، وكان ناقص يطردني من المحل. سواقين التاكسي كانوا رافضين يروحوا المقطم وهُم شافيني شايل حاجات ممكن توسخ عربياتهم، لكن لقيت تاكسي رضي يطلع المقطم، كان التاكسي شكله مخبوط وطالع من حادثة، بس ما فرقتش معايا، المهم أوصل، والسواق سألني لا مؤاخذه أنا شاربي الحاجات دي ليه، فقلتله إني باشطب شقتي، فقال: «معلش، مفيش حاجة بتتعمل بالساهل».

بعدها لاحظت إنه بيسوق بإيد واحدة ورجل واحدة، والإيد والرجل التانيين ما بيتحركوش، فسألته ليه بيسوق كدا، فحكالي إنه ركب معاه اتنين مرّة بالليل وقالوله: «العياط؟»، فقال يوصلهم ويروح. في الطريق فتحوا عليه مطاوي وحاولوا يسرقوا عربيته. في الأول نزلوه من العربية وفضلوا يضربوا فيه لغاية ما كسروا عضمه، لكنه اتماسك ونط على العربية واتشعبط في الشباك وهو مش راضي يسببها، ففضلوا يخبطوا فيه بالعربية في أي حاجة تقابلهم وهُم بيحاولوا يبعده، لغاية ما عضمه اتكسر زيادة، وبعدين اتصدمت العربية في شجرة واتحرق الماتور، فسابوا العربية وطلعوا يجروا، وسابوه غرقان في دمه. حكالي إن الدم كان سايح على وشه لدرجة إنه ما كانش قادر يشوف قدامه، وفضل مرمي في نص الطريق وما بيتحركش لغاية ما عدى واحد بموتوسيكل وداه المستشفى. في المستشفى قعدوا شهر يعملوله عمليات لغاية ما جمعوا عضمه بالمسامير والأربطة. كانت كل أمنيته إنه يرجع يسوق تاني عشان يربي ولاده ويدفع الأقساط اللي عليه، وفي الآخر الدكاترة طمنوه إنه هيخرج من المستشفى بدراع سليم ودراع ما بيتحركش، ورجل سليمة ورجل ما بيتحركش.

لما خرج من أوضة العمليات، لقي عنبر مكتوب عليه «العنبر الصيني»، فصعب عليه حال البلد، وعدى من جنبه ممرض فسأله: «كمان الدكاترة بقينا بنجيهم من الصين؟»، فجأوبه الممرض: «لأ. دا العنبر بتاع حوادث الموتوسيكلات الصيني»، فضحك.

وصلت الشقة، وكنت عطشان، فجريت على كرتونة الميه الـ«بركة»، وطلعت إزازة ميه أشرب، وأنا باشرب بصيت على الكرتونة لقيت مكتوب عليها: «بركة بتقولك كَمِّل»، فمسكت العدة وكَمَّلت.

وأنا رايح السبتية مشي للتدوير على حاجات مش عارفها، بدأت من شارع «رمسيس». عدت على البياعين اللي فارشين في الشوارع، والمشهد خلاني أستحضر صورة مدينة بتتداعى تحت زخم الفقر زي «دبلن جويس» في «عوليس». بعد المرور من جنب المحطة عدت على محلات بيعين ملابس الجيش، والعساكر معديين من قدامها، وجالي شعور وأنا ماشي على الأسفلت المتكسر إني باتمشى في شوارع مدينة لسه خارجة من الحرب، وما طالتهاش لسه يد التعمير. وصلت السبتية، ووقفت أتفرج على تجار الهدد وهُم بيبيعوا أنقاض مدينة كانت جميلة قبل ما تنهار مبانيها بسبب الحرب. وأنا راجع مشي في اتجاه ميدان رمسيس حسيت إن الشارع بقى هادي عن الأول، وشفنت بنت لابسة فستان وردي وماسكة إيدين أبوها وبتتنطط في مشيها، وفجأة بقت البنت هي الكائن الوحيد الملون وسط مشهد مدينة بالأبيض والأسود، زي البنت أم فستان أحمر في فيلم «قائمة شندلر»، والمدينة التعيسة بقت مبهجة فجأة على غير العادة.

قبل ما أسافر كنت قاعد مع صديقين من أصدقاء العمر، ورغم إن مقابلاتنا قلّت بحكم إنهم اختاروا الهجرة، الأول لأمریکا والتاني لإيطاليا، لكن الظروف جمعتنا المرّادي ويكونوا همّ اللي بيودعوني مش أنا اللي باودعهم.

كانت عندي حالة فرح لأنّي خدت الفيزا في آخر لحظة وهاقدر أسافر، وبدأوا يضحكوا عليّ عشان فرحان بالسفر. صديقي الأولاني اللي معاه الجنسية الأمريكية قالي: «إنت فرحان إنك مسافر أمريكا؟»، فقلتله: «آه، فرحان». صديقي اللي عايش في إيطاليا قالي: «أنا خلاص بالنسبالي موضوع السفر بقى تحصيل حاصل». قلتلهم: «عارفين النكتة الفرنسية بتاعة الثلاثة اللي قاعدين في البار؟». قالولي: «لأ». قلتلهم: «ثلاثة قاعدين في البار، اتنين بيتكلموا مع بعض بقرف، الأول بيقول: أنا بامارس الجنس مرّة كل شهر، فالتالت اللي مش قاعد معاهم ضحك، فالتاني قال: أنا بامارس الجنس مرّة كل أسبوع، فالتالت فطس على روحه من الضحك، فالتاتين بصوله وقالوله: بتضحك على إيه، عاوز تفهمنا إنك بتمارس الجنس كل يوم؟ قاهم: لأ، أنا بامارس الجنس مرّة في السنة، فقالوله: أمّال بتضحك على إيه؟ قاهم: عشان ليلتي النهارده».

النكتة ما ضحكتهمش.

قلتلهم: «أنا بقى التالت».

فضحكوا.

وقال صديقي الأمريكي: «دا قُصر ديل. لو كنت تقدر كنت بقيت أمريكي، لكن إنت ما تقدرش». قلتله: «أنا كنت أقدر، بس ما عملتش كدا».

ضحكوا هما الاتنين، وقالي صديقي الإيطالي: «إزاي يافالح؟».

قلتلهم: «من اتناشر سنة ما كانش معايا فلوس كثير، أو ما كانش معايا فلوس خالص زي ما أنا دلوقت. وقتها كنت بادور على أي طريقة أقضي بيها الوقت، واتقبلت في منحة أدرس في أمريكا. شرط من شروط المنحة كان إني أرجع سنتين مصر قبل ما أسافر تاني عشان أنقل الخبرات اللي اتعلمتها. لما رحنت أقدم على الفيزا، كنت اتعودت إني آخذ كتاب معايا أقرأ فيه عشان عارف إن اليوم بيطول في السفارة، وكان ميعادي الساعة ١٢، فقررت أروح مشاوير قبلها، وخذت معايا كتاب في الاقتصاد بالإنجليزي عن سياسات السوق وسيطرة الأقليات العرقية على اقتصاديات العالم».

قرت شوية في الكتاب وأنا راكب المترو من مصر القديمة للمعادي، وقضيت مشواري في المعادي، وبعدين ركبت المترو من المعادي للتحرير، وطلّعت الكتاب وقعدت أكمل قراية فيه. طلّع المترو راجل ملامحه فوق السبعين، وشايل شكارتين دقيق خُضر مليونين حاجات واضح إنها ثقيلة. كان منظره غريب: شعره مهوش، ودقنه مش مخلوقة، ولا بس جاكيت مبهدل، تحته قميص مفتوح، تحته فانلة متقطعة، وبنظلون واسع عليه، رافعه لفوق بالحزام فكاشف الشراب كله من تحته، وكاشف جزمته الواسعة المتقطعة.

اللي قاعد جنبي قام وقعد جنبي الراجل العجوز، ولاحظ إني باقرا في كتاب بالإنجليزي، فسألني: «يا أستاذ أنا عندي سؤال: هُمَّ غيروا عاصمة المملكة المتحدة؟». بصيت حواليّ ولقيت الناس باصين ناحيتنا، فقلتله: «لأ، لندن هيَّ عاصمة المملكة المتحدة»، فقالي: «ياه! ليه كدا؟! ما عملتش ليه زي الدول اللي غيرت عاصمتها، يعني باكستان مثلاً كانت عاصمتها كراتشي ودلوقت بقت إسلام آباد، ونيجيريا كانت عاصمتها لاجوس ودلوقت بقت أبوجا»، وبعدين قالي: «معلش، أصلي شايفك مهتم بالجغرافيا»، فقلتله: «لأ، دا كتاب في الاقتصاد»، فقالي: «الاقتصاد والجغرافيا مرتبطين ببعض جدًّا»، وضحك وقام وبدأ يتحرك ناحية الباب وقالي: «اتفضل معايا»، فقلتله: «معلش عندي ميعاد»، وخرج من المترو.

حطيت الكتاب في الشنطة، وخرجت من المترو، ورغم إن ميعادي كان قرب، لكن وقفت أبص على شحّاتة قاعدة قدام المترو وشايلة عيل على كتفها وبترش ميه على أطفال الشوارع حواليها عشان محدش يقف يشحت جنبها، واتنقلي إحساس بقسوة الحياة.

رحت السفارة، وقعدت أقرأ في الكتاب، واتنده عليّ، سلمت الطلب، وبعدين رجعت أكمل قراية. لما ندهوا عليّ تاني سألتني نائب القنصل: «إنت كل سنة تسافر أمريكا؟ إيه اللي بيرجعك؟». قتلتها: «إنتو بتدوني فيزا محدودة بمدة، ولازم أرجع بعدها». وبعدين قتلتها: «فيه طريقة تخليني ما ارجعش؟». قالتلي: «آه، فيه». قتلتها: «إيه؟». قالتلي: «إنك تاخذ إقامة». قتلتها: «إزاي؟». قالتلي: «اقعد، وهندهلك تاني».

قعدت وكملت قراية في الكتاب. ندهت عليّ بعدها، وقالتلي: «أنا لغيت شرط العودة من الفيزا، عشان إذا قررت تقعد تروح مكتب الهجرة تقدم على إقامة».

لما سافرت أمريكا، رحمت مكتب الهجرة من الصبح بدري، لغاية ما قرب دوري، قرب مني واحد محترم لابس بدلة وقالي: «إنت شكلك طالب». قتلته: «آه». قالي: «أنا مستعجل، ولو وقفت في الطابور مش هالحق، تبيعلي دورك؟». قتلته: «بكام؟». قالي: «بخمسين دولار». أنا ما صدقتش ووافقت فورًا، وبقيت أروح كل يوم أفف في الطابور وأخذ دور وأبيعه. وقتها اكتشفت إني لو قدرت أفف في الطابور خمس أيام في الأسبوع هاقدر أحوش، ولما أخلص دراسة أرجع أشتري شقة في فيصل، وأتفرغ لمشروعي الإبداعي. وكل يوم كنت باقف في الطابور كان حلم الهجرة بيتبدد، وحلم شقة فيصل بيزيد، لغاية ما حوشت المبلغ المطلوب، ونزلت مصر، لكن على ما نزلت كانت أسعار الشقق غليت، فقررت أسافر تاني. لما رحمت أقدم على الفيزا، وطلبت إن يتكتبلي نفس الإعفا من الرجوع، قالولي: «لا، ما عايش ينفع. كان عندك مميزات هجرة فعلاً، بس ما استغلتهاش فمش هتاخذها تاني».

صديقي الإيطالي قالي: «زمانك ندمان لغاية دلوقت إنك ضيعت فرصة حياتك».

قلتله: «لا، أنا زي الهولندي الملعون اللي اتحكم عليه إنه يلف في البحار ويكون متشرد، ما يقدرش يبطل لف، ولا يبطل حب».

صديقي الأمريكي قالي: «في صحتك».

وخرجوا وصلوني للمطار، وكانت دي من أسعد لحظات حياتي، لدرجة إن عينيّ دمعت وهُمَّ بيوصلوني

زي الناس الي بيروح قرايهم يوصلوهم للمطار.

قبل ما أسافر شنطتي الأسبري الغالية عندي جداً كانت بقت متقطعة من كل حته، وسوستها باظت لدرجة إن آخر مرّة وأنا مسافر شركة الطيران ما رضيتش تاخدها على الطائرة، وأصروا إنها يتعملها عملية جراحية وتتلف بلفائف البلاستيك، وفعلاً اضطريت أروح ألفها، وكان شكلها يقطع القلب وأنا شايفها وهي ماشية على السير متجسبة كشخص عمل حادثة شديدة والأمل بقى قليل في إنقاذه.

لما جيت أسافر تاني بقيت في حيرة شديدة: أصلحها، ولّا أشتري شنطة؟ لكن العشرة ما هانتش عليّ، ففكرت أخرج أصلحها. فكيت عنها بقايا الجبس، وخرجت أتمشى معاها، زي اللي بيمشي كلب. رحت الأول عند صناعي الرفة اللي حاطط صورته قدام المحل في وضع تأملي حزين وهوّ لابس بدلة وكاتب عليها: «يا رب ارزق الناس ما يتمنوه لي»، في رسالة واضحة إن اللي يتمناله خير ربنا هيرزقه خير، واللي يتمناله شر ربنا يرزقه شر، ووريته الشنطة، فقالي: «لأ، دي المكنة عندي مش هتجيبها. إنت تروح بيها للجزمجي، هوّ بيقفل ٩ بالليل بس ممكن تلحقه»، ووصفلي الجزمجي فرحتله، وكان بيلم الحاجة في المحل وبيقفل، قتلته إني مستعجل على الشنطة، وسألته إذا كان ينفع يخلصها لي، فقالي: «آه طبعاً. بس دي ممكن تاخذ وقت». قتلته: «مش مشكلة»، فجابلي كرسي أقعد جنبه. رغم بهدلة لبسه، ودقنه اللي بقالها أكثر من أسبوع ما اتحلقتش، لاحظت إنه بيخطط الشنطة بدقة متناهية وعناية بالتفاصيل ما شفتهاش في جزمجة تانيين، فقتلته إنه يفكرني بنجار في السيدة زينب كان بيشتغل نجارة إيطالي بدون ما يستخدم مسمار واحد. قالي: «آه، دا شغل العاشق والمعشوق بتاع زمان». قتلته إن النجار دا كان من آخر جيل اتعلم على إيد أسطى إيطالي، بس ما كانش بيحب يشغل حد معاها، عشان كذا محدش شرب منه الصنعة. قالي: «لا، النجارة الإيطالي دي جميلة، بس أنا باحب النجارة الياباني». ... طبعاً حسيت إن الحوار خد اتجاه عبثي، فقتلته: «وانت شفت النجارة الياباني فين؟». قالي: «في فيلم على ناشيونال جيوجرافيك. أنا لما باروح من هنا ما باشوفش غير ناشيونال جيوجرافيك لغاية ما أنام، ومتعة الدنيا بالنسبالي لما ابني الصغير اللي عنده ست سنين يقعد جنبني يسألني في الجغرافيا، وأنا أشرحه إن الدنيا فيها ناس غيرنا كويسة برضه». قتلته: «وفيه ناس مش كويسة، وتفرح لما تئذي غيرها». قالي: «بس الناس الكويسة أكثر. الناس الكويسة بتجري على أكل عيشها، وما عندهاش وقت تئذي حد، واللي عنده عيل بيخاف عليه، لأن الدنيا دوارة واللي بيئذي حد الأذى بيتردله». قتلته: «طب إشمعني ناشيونال جيوجرافيك؟». قالي: «أنا أصلاً مهندس زراعي، واشتغلت بعد ما اتخرجت من كلية زراعة في الزراعات المحمية تبع وزارة الزراعة، لكن لما الولاد بدأوا يكبروا سبت الشغل وفتحت المحل دا عشان أكفي مصاريفهم». ... خلصلي الشنطة وسألته: «عاوز كام؟»، فقالي: «خمسة جنيه». وفكرت كدا: «آله، أمّال كان بياخد كام لما كان بيشتغل في وزارة الزراعة؟!»، وحاسبته، وقتلته: «معلش، عطلتك عن الفرجة على ناشيونال جيوجرافيك»، فابتسم ابتسامة رضا، وطفى نور المحل، وقالي: «لأ، ما أنا هاقفل أهو، وهالحق أتفرج شوية قبل ما أنام».

لما شفت الشنطة وهي بتستعيد لياقتها حسيت بفرح شديد ما يقلش عن فرح الجزمجي بفرجته على ناشيونال جيوغرافيك. وسعادتني كانت أكبر وأنا باودّعها وأنا باسيبها على السير وعارف إني بعد ساعات هاقابلها تاني، ولأنها كانت وحشاني بشدة لغاية ما قابلتها وخذتها معايا المكان اللي رايحه، قررت أكتبها رسالة تعبر عن شعوري تجاهها:

شنطتي العزيزة

لما باقف عند سير الشنط أستناكي بابقى عارف إنك شبه شنط كثير سودة، ورغم إنك ما علىكيش علامة تميزك، لكن بابقى عارف إنك غيرهم، وإني لما أشوفك هاعرفك. إنتي رقيقة، لكن متماسكة. وياما جريتك ورايا وأنا ماشي مسافات طويلة عشان معييش فلوس أخذك أركبك تاكسي، بس بابقى عارف إنك هتستحمليني زي ما استحملتيني قبل كدا سنين طويلة. وساعات باتعصب عليك لما السفرية ما تجييش همها، أو لما أكون مستعجل وأشدك ورايا وأنا باجري، لكن رغم كدا بتسامحيني وبتكلمي المشوار معايا. وياما توهتي مني لما شركات الطيران قررت إنها تفرقنا عن بعض، لكن كنت بابقى متأكد إني مش هاهون عليك وهترجعيلي. وياما رحط مطارات أدور عليك وأنا قلبي بيقولي إنك وصلتني ومستتية أروح أخذك. لو كان بإيدي كنت ركبك جنبي في الطائرة، وحطيت راسي عليك ونمت زي ما كنت باستخدامك مخدة لي وأنا نايم لما بيكون عندي ترانزيت ساعات طويلة، أو في محطات القطر لما باكون مستني الصبح يطلع عشان نتحرك سوا في مدينة مليش بيات فيها. أنا عارف إنك مش على فيسبوك، ولو ينفع كنت عملتلك إيميل وحساب، بس ما اكدبش عليك مش هاستحمل إن حد يبقو صديقك غيري. بس النهارده باكتب عشان أنا عاوز أعترفلك بمعزتي ليكي، لأنك عشتي معايا أصعب لحظات حياتي، واستمرتي معايا أكثر من ناس كثير مروا بحياتي وما قدروش يستحملوني زي ما استحملتيني. سنين لفيتي معايا فيها بدون ما تعترضني مرة على اختياري، وإنتي متشنتة معايا وعمرك ما اشتكيتي، ولو ربنا قدرني هاعملك ركن يخصك عشان دايمًا أفنكر إنك رافقتيني في اللحظات الصعبة قبل اللحظات الحلوة، وإني دايمًا كنت عارف إني ممكن أعتمد عليك.

وأنا طالب ماجستير في أمريكا ما كانش عندي تصريح إني أشتغل، وفي يوم كنت محتاج أروح لمحامي استشارة، فعملت ميعاد مع محامي، وحجزت ساعة بـ ٢٥٠ دولار. كنت متضايق جداً، يعني إيه أتكلم مع بني آدم وأديله ٢٥٠ دولار في الساعة، دا ظلم وحرام! بس رحتم وأمرني الله، والاستشارة خلصت في خمس دقائق، وما رضيتش أمشي قبل ما آخذ كلام بالي دفعته. المهم بصيت في المكتب لقيت على الأرض سجادة قوقازي أنتيك حلوة، فقلت للراجل: «السجادة الكازاك دي حلوة»، فقالي: «إنت بتفهم في السجادة؟»، فقلته إنها سجادة «تشي تشي» نسبة لقبائل الشيشان، وقعدت أحلله رسمة السجادة. الراجل قالي إنه بيحب السجاد جداً، وبيقضي يوم أجازته في بيته ينضفه ويغسله، وإنه ناوي يعمل مكتب تاني ويبدور على سجاد، وسألني إذا أقدر أساعده. كان فاضل خمسين دقيقة، سألته إذا عنده حساب على إيباي، فقالي آه، فقلته يفتحه، ففتحه، وقلته يقوم من على المكتب ويقعدني مكانه، فقعدت أدخل كلمات بحث مختلفة زي: «سجادة جدتي للبيع»، أو «سجادة قديمة»، وأفر في الصور وأقوله هي دي، فيقول عايزها، فأقوم حاطط مثلاً ألف دولار في البرنامج اللي بيعمل المزايدة لحساب العميل بزيادة قليلة عن اللي قبله، وكان فيه سجادة تخلص على خمسين أو مية وهكذا، وكنت مبسوط إني لقيته سجادة «ساروق» إيراني، وسجادة صلاة تركي جميلة، وكذا سجادة تانية، وخلصت الساعة وسلمت عليه ومشيت.

عدى أسبوع، وبافتح صندوق البريد لقيت ظرف عليه شعار وعنوان مكتب المحامي، ففتحت الظرف لقيت شيك بألف وميتين دولار، وفيه سبب منح المبلغ لي في الشيك، كتب: «عرفاناً لخبراته»، ودي كانت أعلى ساعة اشتغلها في حياتي بدون ما أقصد والله.

وأنا طالب باتعلم اللغة في جامعة «بيروجيا» بإيطاليا، خدت جائزة مليون ليرة عن نصوص كنت كتبتها وقدمتها في مسابقة كانت عملاها الجامعة، وقررت أستغل الجائزة في السفر. رحلت محل «ديزل» اشتريت بنطلون كاكي وجزمة بووت وباك باج، وعديت على محل كان يبيع تيشيرتات مسميها «ماييتة إن باروليه» يعني تيشيرتات بالكلمات، وكان عليها قصايد لشعراء طليان وأجانب، واشترت كذا تيشيرت، وقررت أبدأ رحلتي على الطريق.

قررت أركب القطر وأنزل في مدن مختلفة، أقضي يوم فلو عجبتني المدينة أقعد فيها مدة أطول، ولو ما عجبتنيش أمشي. فاكر إني وقفت في مدينة «فيرونا» مدينة روميو وجوليت، وعلى القطر قالتلي بنت إيطالية إن أهل فيرونا مجانيين شوية، فلما وصلت فيرونا رحلت مطعم أظفر وأشرب قهوة. شفت واحدة قاعدة على طرابيزة لوحدها وقدامها مفكرة، فعرفت بالشكل إن هي كاتبه، وقال لي بيشتغل في المطعم - واللي كان شكله محترم جداً ولابس بدلة سودا أنيقة - إنه ما شافنيش قبل كدا، فقلته إني غريب وأول مرة أروح فيرونا، فقال لي: «أهلاً، أهلاً، إحنا في فيرونا بنحب الغرباء». وبعدين سألني بتشتغل إيه، فقلته إني شاعر، قام علطول شد كرسي عشان يقعدني، وسألني إذا كنت فطرت، فقلته لسه، فقال لي: «أنا عازمك على الفطار»، وجابلي الفطار والقهوة، وشفته بيدفع تمن الفطار من جيبيه، فبعد ما فطرت حاولت أدفعله تمن الفطار اللي دفعه فرفض، وطلب مني إني أقعد عندهم شوية أطول، وسألني إذا كنت محتاج ورق أو أقلام عشان أكتب، فقلته إني عابر سبيل جاي أشوف المدينة وماشي، فقال لي: «وليه تمشي؟ خليك في فيرونا، دي مدينة الشعرا». وهنا فكرت في الكلام اللي قالتلهولي البنت على القطر، وقلت شكلها كان عندها حق.

خرجت من المطعم، ورحلت أتفرج على بلكونه روميو وجوليت، مكان تجمع العشاق اللي بيروحو المدينة، وبعدين عدت أتفرج على محل يبيع حاجات للسياح، وكانت البياعة بنت جميلة من بنات فيرونا، وسألني إذا كنت عاشق بيدور على هدية لمعشوقته، فقلتها إني مش عاشق، فقال لي: «طب ما تخليك في فيرونا يمكن تلاقي عشقك هنا».

قررت أسيب فيرونا بدل ما أتجنن بالعشق أنا كمان، وركبت القطر ورحلت المدينة اللي بعدها: «فيتشيزا». وأنا في القطر سألتني بنت: «رايح فين؟»، فقلتها إني رايح فيتشيزا، فقال لي أخي بالي لأن أهل فيتشيزا بيكرهوا الأعراب.

وأنا باتمشي في فيتشيزا قابلني صالون حلاقة فدخلت أحلق.

الحلاق سألني أنا منين، فقلته إني من مصر، فسألني ناوي أطول في فيتشيزا، فقلته لأ وإني مجرد عابر سبيل، فقال لي: «دي أحسن حاجة»، فقلته: «ليه؟»، فقال لي: «الأعراب شبه السمك، أول ما بيوصلوا بيقوا

عاملين زي السمك الي لسه طالع من البحر، طازة وفيه ريحة البحر، والواحد يشوفه يبقى مبسوط ونفسه ياكله أكل، لكن بعد ما بيعدوا كذا يوم الواحد بيبدأ يشم ريحة عنفهم».

وخرجت من صالون الخلاقة على محطة القطر من تاني، وأنا باقول يا ريتني كنت فضلت في مدينة المجانين، ولا عرفت إن فيه في العالم ناس عنصريين.

٢

العالم مليون عنصرية، والواحد لما يسافر من بلده بتواجهه أشكال كثير من العنصرية، فيسأل نفسه إذا العنصرية دي حاجة ممكن الواحد يتعامل معاها. الحقيقة لأ.

الواحد بيكبر، وكل ما بيوصل لبلد ويشوف إزاي بيتصله نظرة مختلفة من رجال الأمن لأنه من خلفية معينة، أو هو ماشي ويتقاله يطلع من الطابور ويروح طابور تاني عشان يتفتش تفتيش مختلف بسبب لونه أو شكله، كل ما إحساسه بأن العالم بقى مكان عنصري وقبيح بيزيد.

العنصرية دي مرض، والمجتمعات المصابة بالمرض دا هي اللي محتاجة تتعالج منه. عشان تفهم اللي أقصده هاحكيلك حكاية:

الموقف دا حصل قدامي أول مرة أروح أقدم على فيزا في قنصلية هولندا سنة ٢٠١١، قبل ثورة يناير بتلات أسابيع. رحلت القنصلية الصبح، وفضلت مستني إني أدخل أقدم الورق. النظام المعمول بيه كان إن واحد بيدخل القنصلية يقدم ورقه على الشباك ووراه واحد بيتنظر لغاية ما يخلص فيدخل على الشباك وراه، ودا معناه اللي قاعد منتظر بيحضر مقابلة اللي قبله كاملة. اللي قبلي قدم ورقه، وشرح إنه رايح يحضر ولادة ابنه من مراته الهولندية اللي هتولد في هولندا. الموظف بص على الأوراق اللي مقدمها الشاب، وقاله: «أنا مش هاقدر أقبل طلبك». الشاب سأل ليه، فالموظف قاله: «عشان عقد عمل مراتك يقول إنها بتشتغل في بلجيكا»، فالشاب قاله: «لكن هي هولندية وهتولد في هولندا»، فالموظف قاله: «ما دام عقد العمل في بلجيكا، يبقى لازم تقدم في سفارة بلجيكا». الشاب قاله: «لكن هي هتولد في هولندا وعندك ورقة باسم المستشفى»، فالموظف قاله: «لما توصل بلجيكا، ممكن تاخذ قطر أو طائرة تروح هولندا»، فالشاب قاله: «أنا ما صدقت خدت ميعاد. على ما آخذ ميعاد في سفارة بلجيكا تكون مراتي ولدت»، فالموظف قاله: «مليش فيه، أنا لي في الورق، وما اقدرش أقبل طلبك». ومشي الشاب من على الشباك، وقربت من الشباك أقدم ورقي وشرحت إني مدعو لمهرجان لمدة ست أيام، واتقبل الطلب، وبعد ١٤ يوم رحلت أخذ الباسبور، وحمدت ربنا إنهم إدوني فيزا بأسبوع بالظبط على أد السفرية.

الموضوع دا أثر في بشدة، وخلاني أدور، واكتشفت إن بالنسبة للقوانين الهولندية مش مهم إن الأب إذا كان من خلفية معينة يسجل ابنه أو بنته، ولا مهم إنه يريه، الأهم بالنسبة للقانون إنه يثبت إنه إنسان متحضر ويعدي امتحان في التحضر والثقافة الهولندية باللغة الهولندية عشان يقدر يسافر. وقريت عن حالات تدخلت فيها الشرطة الهولندية لترحيل آباء من خلفيات معينة بعد ما مراتهم تولد تنفيذاً للقانون

الرافض لغير المتحضرين. اللي ما يفهموش الهولنديين إن التحضر والحضارة إذا تعارضوا مع الفطرة الإنسانية ما يبقوش حضارة، وإن مجرد تمييز ناس من خلفيات معينة عن باقي البشر في المعاملة في نفس الظرف الإنساني هو نوع من العنصرية اللي بتعتبر وصمة في جبين الإنسانية.

٣

وأنا باحاضر في جامعة في أمريكا في ولاية ماريلاند سنة ٢٠٠٦، جاتي دعوة من مدرسة ابتدائي عشان أحضر فصل رسم مع الأطفال في المدرسة، وعجبتني الفكرة، لغاية ما رحنا الفصل ولقيت عيال زي القروذ بيتنططوا ويبيصولي من فوق لتحت، ويسألوني إذا أنا اللي جاي من مصر، فقلت لهم آه، فواحد زعق: «كائن فضائي.. كائن فضائي»، فسألته له يقول عليّ كائن فضائي، فقالي عشان هوّ قرا إن اللي بنوا الأهرامات كائنات فضائية. المهم عرفت إني اتخطيت في مازق، ففرجت الأطفال على صور من مصر فيها مصريين، وفهمتهم إن المصريين مش كائنات فضائية، وبعدين قعدوا يتنططوا تاني، فقلت لهم: «تحبوا نلعب لعبة؟»، فكمّلوا تنطيط، بس واحد منهم سألني: «لعبة إيه؟»، قلت لهم: «تعرفوا تكتبوا اسمكو بالعربي؟»، فظهر عليهم علامات الذهول، فقلت لهم: «لو سكتوا هاكتبلكوا أساميكو بالعربي»، فسكتوا. المهم طلبت من المدرسة ورق وأقلام فلوماستر، وقعدت شرحتهم إن العربي غير الإنجليزي، وبيتكتب من اليمين للشمال، وبعدين بدأت أكتب لكل واحد اسمه في ورقة، وحسيت أد إيه كانوا مبسوطين وهُمّ ماسكين الورقة اللي عليها أساميهم بالعربي في أيديهم، لغاية ما الحصة خلصت وطلعوا كلهم يجروا بره، واتبقى طالب واحد في الفصل جه وقرب مني، وقالي بصوت واطي جدًّا: «أنا عربي.. بينادوني مو لكن اسمي مصطفى». سألت له ما جاش يكتب اسمه، فقالي لأنه مش عاوزهم يعرفوا اسمه الحقيقي.

في اللحظة دي مرت في ذهني بسرعة حاجة حصلت معايا سنة ١٩٩٨...

٤

سنة ١٩٩٨ لما كنت بادرس إيطالي في جامعة «بيروجيا» بإيطاليا اتعرفت على صديق من رواندا اسمه موسى. كان عنده منحة من الكنيسة الكاثوليكية للدراسة في الجامعة في إيطاليا. الحقيقة موسى علمني درس مش هانساه طول حياتي. أول ما موسى قابلني في الجامعة وعرف إنني مسلم قرب مني وطلب مني نشرب قهوة سوا. وحسيت إنه عاوز يقولي حاجة سر. واحنا بنشرب القهوة قالي: «أنا اسمي موسى، بس اسمي الحقيقي محمد»، وبعدين قالي: «أنا باقول للناس كلها إنني يهودي، بس أنا مسلم». موسى كان واحد من المحظوظين أبناء قبيلة «التوتسي» اللي قدروا يهربوا من رواندا بعد مذبحة التطهير العرقي في ١٩٩٤ اللي راح فيها ٨٠٠٠٠ بني آدم. حكالي الحكاية الشهيرة بتاعة إن أبناء التوتسي كانوا معروفين بعد الحرب العالمية الثانية بأنهم مفضلين من البلجيكين بسبب أنوفهم اللي شبه أنوف الأوروبيين القوقازيين، طويلة وضيقة، لكن أبناء «الهوتو» كانت أنوفهم عريضة ومفلطحة. لما بدأ التطهير العرقي كان أبناء الهوتو بيتعرفوا على أبناء

التوتسي من أنوفهم فيقتلوهم. الحكومة ذات الأغلبية الهوتو طلبت شراء سلاح من دول كثير فرفضت، ما عدا دولة واحدة وافقت تباع سلاح للجيش الرواندي، والدولة دي كانت مصر، واطرمت الجثث الميتة في النيل، وشربنا مية النيل ملوثة بدم التوتسي. اعتذرت لموسى وقتله إني بجد ما اعرفش في السياسة، وما اقدرش أكاد إن مصر باعت السلاح لرواندا.

مشكلة موسى كانت مشكلة هوية، وقالي إنه لو ما كانش ادعى إنه يهودي ما كانش عرف يخرج من رواندا، بس هو محتاج مساعدة من المسلمين. قتلته يروح الجامع الكبير في روما ويتكلم مع الناس، بس إذا ما عرفش يلاقي مساعدة من المسلمين نصحته يفضل عامل يهودي لغاية ما يكمل دراسته على الأقل وبعدين يعلن إسلامه.

موسى حس بالامتنان تجاهي، وقرر يعزمني على العشا في بيت للطلبة الروانديين من أبناء قبيلة التوتسي. كان لازم نركب الأتوبيس، وبما إني معايا اشتراك أتوبيس ركبت الأتوبيس وقعدت. موسى دخل ورايا لكن السواق وقفه وقاله: «وريني تذكرتك». موسى قاله: «أنا هاوريك التذكرة، بس بعد ما تقولي ليه وقفني وما وقتهوش هو»، وشاور عليّ: «يعني عشان هو أبيض، وأنا إسود؟»، وطلع اشتراك الأتوبيس، وقال للسواق: «إنت عنصري!». السواق انهار، لأن الاتهام بالعنصرية أو التمييز أكبر جريمة ممكن توجهها لحد في مجتمع متحضر. حاول السواق ينفي، لكن موسى واصل اتهامه بالعنصرية والسواق يقول: «أنا مش عنصري.. مش عنصري»، لغاية ما عيط واعتذر لموسى.

٥

الحادثة بتاعة موسى الرواندي الي اسمه الأصلي «محمد»، عدت في ذهني وأنا باتكلم مع مصطفى العربي الأمريكي الصغير الي بيحاول يداري إنه عربي، وبيقول لأصحابه إن اسمه «مو»، الي هو برضه اختصار «موسى» بالإنجليزي.

بصيت لمصطفى، وحسيت إني شايف شيخ موسى قدامي، والمرادي ما كانش ينفع أقول للولد الصغير إنه ينكر إنه عربي بالأساس، لأنني ما حسيتش إنه محتاج ينفي عربته، وقتله: «عارف إنت عندك حاجة أحسن من ناس كثير. ناس كثير ما عندهاش غير لغة واحدة.. إنت عندك لغتين»، وابتسمته فابتسم، وقتله: «إنت لازم تكون فخور».

٦

وأنا في جنوب أفريقيا حكالي صديق من هناك إن في المدارس عندهم أيام التفرقة العنصرية كانوا بيدوا للطلبة الي مقدمين على المدارس قلم رصاص، ويقولولهم يحطوه ما بين ودانهم وشعرهم، فلو القلم وقع يقبلوهم، ولو القلم ثبت على ودنهم يبقى شعرهم أفريقي ويطردوهم من المدرسة. دا ما منعش الأفريقي أبو شعر أكرت إنه يبقى فنان ومهندس ودكتور، لكن الأبيض الي كان بيتريق عليه فضل مجرد أبيض بائس

الجحيم هوّ لما تروح مكان وكل ما تمشي تشوف الناس بتبصلك على إنك غريب عن المكان، وتحس إنهم مقروفين من وجودك.

مرّة كنت مسافر هولندا في الشتا أحضر مهرجان هناك، وكنت مقرر أقعد فترة بعدها. كنت حاجز على درجة رجال الأعمال في الخطوط الملكية الأردنية، ودي مش أول مرّة أسافر فيها على الخطوط الملكية الأردنية، خصوصاً في أوقات الذروة اللي بيكون فيها الحجز على خطوط تانية شبه مستحيل. وأحب أعترف إني فعلاً تأثرت بمستوى الخدمة والضيافة والمضيفات الأردنيات: الابتسامة، اللياقة، الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة زي إن المضيفة تلاقي اتنين يبحبوا بعض فتسألهم إذا يحبوا تجييلهم طبق يتشاركوا فيه بدل طبقين. الحاجة الوحيدة اللي حسيتها كثير هيّ جناح رجال الأعمال في عمان اللي عامل زي مطعم واستراحات فنادق الخمس نجوم، واللي ما قدرتش أستحمل القعدة فيه مدة طويلة، وفصّلت إني أتمشى أتفرج على معمار مطار الملكة علياء.

الشيء المزعج على بوابة العبور للطيارة كان وجود شخص غربي مع طاقم الطيارة الأردني، عجوز أبيض الشعر كأنه جاي من حقبة الكولونياليين الأوائل، ببص للناس بتفرس كأنه بيندهش إزاي قدروا يحصلوا على وثائق سفر تدخلهم اللجنة الأوروبية، وكأن فجأة كل الكولونالية الأوروبية قررت تحضري قبل ما أروحها. بمجرد ما وصلت بباسبوري المصري الأخضر اشتعلت عند الكولونيالي كل حواس الاستشعار الكولونالية، وقام طلب الباسبور، وطلع عدسة مكبرة صغيرة من جيبه زي عدسة الجواهرجية، وبدأ يبص بتفرس في باسبوري، ويمشي على الفيزا بالعدسة، ويشمشم كأنه على وشك إنه يلاقي لقية، فتجاهلته تماماً وبصيت الناحية الثانية، قام لف حواليّ وبدأ يتفرس تاني في ملامحي وفي ملامح الصورة، لكن الظاهر ما قدرش يلاقي فرق ما بين الصورة والأصل قام إداني الباسبور بقرف، وخذته منه بقرف متبادل ودخلت على الطيارة.

لما وصلت المطار الأوروبي، اتوجهت ناحية منطقة تحكم الجوازات، ومن كتر ما عدت على المنطقة دي بقيت عارف إن الصمت وعدم اللطف أسهل الطرق للعبور، وإلا شكوا فيّ. الطباط كان فيه شبه من الممثل الإسباني «خافيير بارديم» لما يكون مكش وقرقان من البشرية. إديتله الباسبور، بص فيه وسألني: «إنت جاي بيزنس؟»، فبصيتله وأنا عاوز أقوله عندك الفيزا بص فيها، لكن رديت وقلته: «نوعاً ما»، وبصيت الناحية الثانية، قالي: «هتقعد أد إيه؟»، قلته: «تقريباً شهر»، فختلمي الباسبور ومشاني، وأنا ماشي اندهشت من الردود اللي بقيت باردها: «نوعاً ما.. تقريباً...» إيه الردود دي؟! وفجأة سمعت صوت نداء داخلي في قاعة الوصول بيقولني: «مرحباً بك في المنفى أو حيز البارانونيا»، فعرفت إني وصلت.

لما وصلت اتيقنت إن الجو كان برد، وإني مش عامل حسابي. وقابلت حد هولندي في المهرجان، فاشتكت

إن الجو برد، عادي زي لما حد ييجي مصر فيشتكي من الحر عندنا. ما كتتش أقصد حاجة وحشة، فقالي: «أنا لا أشعر بالبرد لأننا نحن الهولنديين من أصول ملكية ودمنا أزرق». ما فهمتش المعنى. كان أول مرّة كلمة «دم أزرق» دي تعدي عليّ، فرحت الأوتيل، منها أبقى بعيد عن البرد ومنها أفهم موضوع الدم الأزرق دا، فقريت إن من المعتقدات الأوروبية في القرون الوسطى الاعتقاد بأن النبلاء والأرستقراطيين دمهم أزرق اللون، والسبب إن كان عندهم القدرة على تأجير العبيد عشان يخدموهم، ويقال إن العروق كان بيقتى لونها أزرق فعلاً بسبب عدم تعرض النبلاء للشمس.

وقتها كنت عاوز أنزل أضربه، لأنه كأنه قالي إني عبد عشان دمي مش أزرق زيه، لكن ما قابلتوش تاني. الغربية إن رغم إني ما قابلتوش لكن الموقف فضل معايا، وفضلت باحاول أخبي إحساسي، لكن ما عرفتش.

النصائح الاثنتا عشرة
للحياة السعيدة

- ١- افعل شيئاً واحداً في المرّة الواحدة.
- ٢- افعله ببطء وبتروؤ.
- ٣- افعله تماماً.
- ٤- افعل أقل.
- ٥- ضع مسافة بين الأشياء.
- ٦- اصنع طقوساً.
- ٧- خصّص وقتاً معيناً لأشياء معينة.
- ٨- اقتطع من وقتك وقتاً للجلوس.
- ٩- ابتسم واخدم الآخرين.
- ١٠- اجعل التنظيف والطبخ طقوساً للتأمل.
- ١١- فكّر فيما هو ضروري.
- ١٢- عش ببساطة.

بعد ما رجعت من إيطاليا سنة ١٩٩٩، قعدت سنتين ما باشتغلش. في الستين دول خسرت كل اللي أعرفهم بلا استثناء، لأن ببساطة محدش يبحب يعرف حد عاطل عن العمل، وتلاقي الناس اللي تعرفها لما تشوفك تبص الناحية الثانية، وتعمل ما تعرفكش. لسه فاكر النظرات وهي بتبتعد، ووقتها جاتلي شغلانة ترجمة، وفضلت سنتين أترجم أي حاجة: عقود تجارية، شهادات تخرج، قصص، أي حاجة، وكان هدفي إني أحوش ١٠٠٠٠ جنيه أدفعهم مقدم شقة في فيصل. الموضوع خدلوا سنتين، وعلى ما حوشتهم عاطف عبيد عوم الجنيه، وبين يوم وليلة بقت تحويشة العمر تسوى النص. جاتلي دعوة أروح إيطاليا، وفاكر وقتها إني رحنت قنصلية إيطاليا في إسكندرية لأنني ما كنتش لسه غيرت بطاقتي على القاهرة، وبتوع الأقاليم كانوا بيقدموها في إسكندرية، وطلع عيني عشان آخذ ميعاد يوم حد، وكان سفري يوم خميس، ولما رحنت على الشباك قالولي هات حساب بنك وتأمين، ووجعولي دماغني وإدوني ميعاد تاني بعد أسبوعين، فقلتلهم عاوز أقابل القنصل، وما مشيتش إلا لما قابلت القنصل، والراجل دخلني مكتبه وقعدنا نتكلم، وقتله: «أنا عاوز فيزا أسبوعين، وما يصحش يعاملوا الناس كدا»، فقلالي: «إنت ليه عاوز الفيزا بأسبوعين بس؟»، فقلتله: «لأن دعوتي أسبوعين بس، وأنا مش ناوي أقعد زيادة». قلالي: «بس أنا القنصل وممكن أعملها لك بسنة أو سنتين لو عاوز»، فقلتله: «عاوزها أسبوعين بس»، فقلالي: «أقل حاجة عندنا شهر، ينفع؟» قلتله: «ينفع»، فقلالي: «تعالى استلمها يوم الأربعاء»، قلتله: «ما ينفعش الأربعاء، أنا مسافر الخميس ومحتاج أروح البنك أغير فلوس، عاوزها التلات»، فقلالي: «تعالى خدها التلات»، واكتشفت بعد ما مشيت إني ما كتبتش طلب، فقلت لنفسي دا القنصل أكيد مش هيفرق معاه الطلب، ورجعت خدت الفيزا، ورحت البنك غيرت خمسميت يورو - بالفيزا والتذكرة - وغيرت بقية الفلوس في السوق السودا. لما وصلت إيطاليا اكتشفت إني ما حلقتش وشعري منعكش، فرحت حلقت بتلاتين يورو، وما عجبنيش أكل الورشة فقررت آكل بره، وقبل ما أرجع مصر رحنت محل جزم، وكان الجزم شكلها كلها حلو، فقعدت أجرب فيها لغاية ما بقيت محتار بعد ما جربت جزم كتير، فالراجل البياع سألني: «عاوز أنهي؟»، فقلتله: «هاخدكم كلهم»، وخرجت من المحل رحنت محل أرمانى اشتريت بناطيل وقمصان أرمانى لغاية ما ضيعت تحويشة العمر في اللبس، ودا كان ردي العملي وقتها على اللي عملوا في عاطف عبيد، ورجعت مصر مفلس عشان أبدأ من أول وجديد.

علاقتي بوسط البلد علاقة قديمة. كانت بالنسبالي المكان الي بانتقل من قهاويه من النهار للنهار مع ساعات قليلة نوم في النص: من الحرية للندوة للطباخين لفينا. كان فيه استمتاع ما بحالة الفراغ الي الواحد كان بيعيشها، وكانت القهاوي مكان الي ملهمش مكان، وخصوصاً لما ما كنتش مأجر سكن، وكنت بابقى عارف إن أكيد عند وقت معين هتجيلي دعوة للبيات في مكان ما، وكنت بابقى محبط لما تنتهي القعدات وتمتد الأيادي تسلّم، ولسه مفيش دعوة جت، وقتها كنت باتمشي لقهاوي شارع رمسيس، أشرب الشاي الأخير وأسلم بطاقتي للقهو جي عشان لو عدت لجنة محدش يصحيني.

لما رجعت من إيطاليا سنة ١٩٩٩ عملت حسابي إن فيه فترة مش هالاقى فيها شغل، وقعدت في فندق «سويس إن» في تقاطع «محمود بسيوني» مع «شامبليون». كان فيه إحساس ما بالتعالى عن الواقع، وأنا واقف باتفرج على الحياة من بلكونة أوضتي، وشايف الناس الي ماشية ومنهكة في أعبائها اليومية، وأنزل أفطر وأشترى جورنال «لوموند» من بيع الجرايد على ناصية «شامبليون» مع ميدان التحرير، وأرجع أوضتي تاني. كان فيه إحساس إن الشغل مسيره بييجي، لكنه ما جاش.

عدى شهر والفلوس الي معايا خلصت، ورجعت الشارع من تاني، وقتها جالي عرض ما كانش ممكن أرفضه: أوضة مع صديق فوق سطوح عمارة في وسط البلد بميت جنيه. كانت الأوضة مفياش عفش، وما كلفناش نفسنا نشترى عفش، وقررنا نعيش عيشة بسيطة. ما كانش فيه في الأوضة حمام، وكان للسطح كله حمام واحد مشترك بين أوض السطوح بباب خشب متآكل محدش عاوز يغيره، فكان لما حد بيستحمى بيكون معرض إنه يبقى متشاف من خلال الشقوق في الخشب، ودا كان بيخلي الواحد يحس بالذنب إذا كان فيه واحدة من المقييات على السطح بتستحمى وكان عاوز يستخدم الحمام. بعد شهرين تعثرنا مالياً إحنا الاتنين، فبطلنا ندفع إيجار. اللمبة الوحيدة في الأوضة اتحرقت فكسلنا غيرها، وفضلنا عايشين بالليل على إضاءة الإعلانات النيون لعمارات وسط البلد. كان فيه روف عمارة قدامنا بيتعمل فيه حفلات كل ليلة، وكنا لما نقف في الشباك نشوف مظاهر الاحتفال بوضوح، ونتمنى إن حد يعزمننا، لكن العزومة عمرها ما جت.

بعدين إحنا الاتنين فلسنا تماماً، وبطلنا ندفع الإيجار على وعد لصاحب الأوضة إن لما ربنا يبسرنا ندفع، بس الرزق كان شاحح أيامها. زميلي في السكن رُزق بمبلغ بس قرر يشترى ووكمان عشان يسمع مزىكا، وعرفت إنه ما عادش مهتم.

بعد شوية من عدم دفع الكهرباء اتقطعت، فتعايشنا مع الفكرة وبقينا نجيب شمع، وبقت متعتنا الوحيدة هيّ الفرجة على الحفلة الي ما بنتعزمش عليها، لكن بعد ست شهور جالنا إخطار بإن صاحب الأوضة رفع علينا قضية طرد، وبقي يا الدفع يا الطرد. حاولنا بكل الأشكال نجمع المبلغ لكن كان مستحيل، لغاية ما قابلنا صديق محامي جدع على قهوة «الحرية»، واتعاطف معنا وقرر يحضر معنا القضية مجاناً لوجه الله تعالى. يوم نظر الدعوى رحنا إحنا الاتنين محكمة عابدين مع المحامي، والمحامي قرب من القاضي وأعلن إنه

حاضر وطالب المدعي بإثبات ملكيته للأوضة وضم أوراق ثبوت الملكية لأوراق القضية، والقاضي حكم بالتأجيل ست شهور.

لما طلعنا من المحكمة المحامي قالنا إن غالباً صاحب الأوضة معهوش أوراق ملكية ليها، ولو معاه وقدمها هنتطرد بس بعد ست شهور، لكن لو ما قدمهاش تبقى الأوضة في حيازتنا وضع اليد. وبدأ صاحب الأوضة يتفاوض معانا عشان ناخذ فلوس ونمشي، لكن بعد شوية الأوضة بقت ملجأ لناس كثير جداً، وبقى من الصعب يكون للواحد أي خصوصية، كأن القهاوي كلها اتنقلت للأوضة، فخذت نفسي ومشيت وأنا مقرر إني أودع وسط البلد وما ارجعهاش.

لما بيجيلك دعوة تشارك في مؤتمر بره مصر بتحس بفرق كبير في المعاملة عن مصر. أنا مثلاً جاتي مرة دعوة أشارك في مؤتمر كان بيقام في أثينا تحت رعاية وزارة الثقافة اليونانية مع بداية الأزمة الاقتصادية. الندوة كانت عن الثورة الرقمية وتأثيرها على السينما. ومع الدعوة اتقالي إن المحاضرة بتاعتي هتكون ربع ساعة وهاخد ٥٠٠ يورو، دا زائد الإقامة في أوتيل في أثينا قدام الأكروبليس. وأنا حسيت إن الدنيا أخيراً فتحلي دراعتها، وإني لو جاتي كذا دعوة من دول وحاضرت ثلاث ساعات في السنة هاعيش ملك. لكن مفيش حاجة في الدنيا بتعدي بدون عقبات.

رحت سفارة اليونان أقدم على فيزا، وكنت متخيل إن السفارة هتديني الفيزا مجاناً على أساس إن دي دعوة رسمية ثقافية، لكن في السفارة طلبوا كل الأوراق، وقالولي أقدم على فيزا سياحة وأدفع ستين يورو. المهم كانت أول مرة أسافر اليونان، والدعوة كانت عشرة أيام، فقلت ماشي نقضيها سياحة، ورحت اشتريت كاميرا عشان أصور صور سياحية.

لما وصلت مطار أثينا وقفت في طابور الجوازات، وكان مسافر معايا على نفس الطائرة جروب كبير جاين من نيجيريا، وسبقوا ووقفوا قدامي في طابور الجوازات، وطبعاً فهمت إن الموضوع ممكن يطول، لكن البنت الطابطة بتاعة الجوازات شكت إن فيزهم مضروبة، وندهت على ظابط تاني ياخذهم على مكتب يحقق معاهم. ولاقتني مرة واحدة قدام الأمورة اليونانية، بصت على الفيزا وقالتي: «سياحة!»، وكان ناقص تقولي «إنت هتعملهم علينا يا جربوع!»، وتندھلي الطابط ياخذني أنا كمان على المكتب، لكن أنا الحقيقة ما اديتهاش فرصة وقتلتها: «أنا معزوم على محاضرة بتنظمها وزارة الثقافة اليونانية»، فسألني: «أمال الفيزا بتاعتك مكتوب فيها سياحة ليه؟!». قلتها: «لأن اللي شغالين في السفارة بتاعتكو في مصر معفين، وكل اللي يههم ياخدوا الستين يورو. تحبي تشوفي الدعوة؟»، ولسه هامد إيدي أطلع الدعوة لقيتها بتختم الباسبور وقالتي: «لأ، شكراً».

خرجت خدت شنطتي، ووأنا باخرج لقيت واحدة فيها كل جمال البحر الأبيض المتوسط واقفة بورقة عليها اسمي، رحلتها، ومن ساعة ما خدتن من المطار لغاية ما وصلت الأوتيل ما بطلتش حكي وهي بتضحك، لدرجة إني بقيت عارف كل حاجة عن حياتها.

تاني يوم ريحت، واتمشيت حوالين الأكروبليس، وقعدت أراجع المحاضرة بتاعتي. يوم المحاضرة لقيتني على طرايبزة واحدة مع ناس من أمريكا وفرنسا وهولندا وألمانيا، وكلهم ناس من اللي الواحد بيقرا عنهم في الكتب. وتخيلت إن محدش هيقى عاوز يسمعني بعد الناس الجامدة دي. وبعد محاضرات نظرية عميقة، أنا قرئت المحاضرة بتاعتي اللي قلت فيها إنه حصل تطور فني في مجال الفنون البصرية الرقمية، ممثلة في فنون الفيديو والجرافيك، ما امتدش للسينما اللي هي منعزلة في بنية مهترئة وغير إبداعية. المحاضرة بتاعتي امتدت لنص ساعة، والغريبة إن ٩٠٪ من أسئلة الجمهور بعد كذا اتوجهت لي.

وبعد الندوة لقيت الناس اللي كانوا بيحاضرنا معايا بيتكلموا معايا كأننا بنعرف بعض من سنين، لدرجة إن المحاضر الهولندي اللي هو مخرج سينمائي معروف قالي إنه بيبقى مسافر أغلب السنة وشقته في أمستردام بتبقى مقفولة، فلو عاوز أقضي أجازة هناك أكلمه في أي وقت وأقابه أخذ المفتاح وأقعد لغاية ما يرجع.

واتعرفت على ناس كثير، وبديت أبقي سايح، وبديت أصور أثينا بالكاميرا الجديدة.

لكن بديت ألاحظ أثر الأزمة الاقتصادية على الناس اللي كان باين على وشها ملامح الحزن، لدرجة إني بعد ما اتمشيت كثير وكنت عاوز أرجع للأوتيل، فكرت أركب أتوبيس، فسألت واحد أركب أنهي أتوبيس، فلقيته يقولي: «إنت مش سايح؟ تركب أتوبيس ليه؟ اركب تاكسي»، وكانت تعابير وشه بتقول: «جاتكوا القرف مليتوا البلد»، لدرجة إني قررت أرجع المسافة نفسها مشي تاني.

المهم كلمت اللي منظم الندوة في موضوع الخمسميت يورو، فقالي إنه هيدفعلي قبل ما أسافر.

المشارك الأمريكي اللي كان معانا اقترح نروح ليفادا ناكل سمك على البحر، وكل الناس وافقوا، واتقسمنا على تاكسين، كان نصيبي إني أركب أنا والأمريكاني والألمانية. لما نزلنا من التاكسي طلع الأمريكاني معهوش فلوس كاش لأنه بيمشي بالكريديت كارد، والألمانية ما كانش معاها يكفي، فأنا عزمتهم على التاكسي، ورحنا وقعدنا ناكل سمك ونستمتع بمنظر البحر.

بعد ما خلصنا أكل وجه الحساب وبدأوا يقسموا الفاتورة علينا، الأمريكاني ميل عليّ وقالي: «معلش ادفعلي عشان ما باحشب أصرف من الكريديت كارد كثير وأنا مسافر، لكن أول ما أسحب فلوس هادفعلك»، فدفعته.

المهم خرجنا من المطعم وأنا من كتر نشوة الاستمتاع نسيت الكاميرا. بعد ما رجعنا الأوتيل افتكرت الكاميرا قمت خدت تاكسي تاني ورجعت على ليفادا، لكن ما افتكرتش المطعم اللي كنا فيه، فنزلت وقعدت أتمشى لغاية ما لقيته. دخلت وسألت إذا كانوا لقوا كاميرا، فقالولي إن الوردية اتغيرت وما يعرفوش حاجة، بس ممكن أرجع تاني يوم في ميعاد الوردية بتاعة الظهر.

رجعت تاني يوم، والمهم لقيت الراجل اللي كان بينزلنا الأكل اليوم اللي قبله، رحته وسألته إذا كان لقي كاميرا بعد ما مشينا قالي: «أنا ما كنتش هنا امبارح». قتلته: «أنا فاكرك». قام بص في الأرض وقالي: «مش أنا»، وعرفت إن هو، وإن مفيش أمل.

فضلت ماشي على الشط وأنا حزين لغاية ما الدنيا بدأت تليل، وقررت إني أنبسط وما أزعلش نفسي، وفجأة المكان بقى مليون ناس رايحة تسهر لدرجة إني قلت البلد دي فيها أزمة اقتصادية إزاي! المهم قعدت في حانة أحسني الجعة لوحدي عشان أنسى، وعلى الطرابيزة اللي جنبي كان فيه شبان وبنات بيعتسوا الجعة برضه فندهولي نحتسي مع بعضينا. المهم عرفت إنهم طلبة ومفلسين، وسألت واحد منهم عن الأزمة الاقتصادية فقالي: «آه طبعاً فيه أزمة، بس بنحلها، إزاي؟». قتلته: «إزاي؟». قالي: «محدش بيدفع لحد. يعني أنا أتفق على شغل، يبجي صاحب الشغل بعد ما أخلص الشغل ما يدفعليش، يقوم يبجي صاحب الشقة ياخذ الإيجار، أقوم أقوله معلش الشهر دا أصل صاحب الشغل ما دفعليش، وهكذا، محدش بيدفع لحد،

وكل الناس مبسوطين على كدا». وعجبتني الفكرة جدًّا لدرجة إنني اتمنت أكون يوناني.
تاني يوم قابلت اللي منظم الندوة، وقلت لازم أخليه يدفعلي الخمسميت يورو، فلما رحته قالي: «معلش أصل إنت عارف الأزمة الاقتصادية، وأنا طلبت الفلوس من وزارة الثقافة بس لغاية دلوقت ما ردوش». هو قالي كدا وافتكرت حكاية اليوم الي قبله، وقلت لنفسي: كدا بقى أستعوض ربنا. وبعدين بصيت لمنظم الندوة فلقيته حزين ومتضايق فقلته: «لأ مش مهم الفلوس خلاص، إنت كفاية إنك عزميني، وأنا فعلاً انبسطت إنني جيت هنا، وأنا قابلت ناس جميلة واتعلمت كتير، والفلوس في الآخر بتروح وتيجي ومش قضية». الراجل ملامح وشه اتغيرت، وقعد يشكرني بزيادة، وكان ناقص يرقص.
ورغم إنني حاضرت بعد كدا في كذا بلد، لكن دي كانت أكثر مرّة اتقدرت فيها حتى لو على الورق بس.

بيروح فين الحب لما بينتهي؟

لما اتنين بينهوا علاقة حب، ويبتفقوا إنهم يكونوا أصدقاء، فهمّ في رأيي بيكذبوا. مجرد حاجة الناس بتقولها عشان تتخلص من ثقل الإحساس بالنهايات المؤلمة، لكن اللي بيخلق النهايات المؤلمة هو الصمت وعدم القدرة على النطق باللي المفروض يتقال في الحب. التخفيف من نبرة المحبة عشان تناسب وضعية أقل، لكن هل دا معناه إن الإحساس بالحب انتهى فعلاً؟ لا، ما انتهاش، ولكن فيه «ما لا يسير جيداً في الحب». ولأن فيه حاجة ما كانش ممكن المحافظة على استمراريتها.

نهاية الحب - إذا افترضنا إن الحب بينتهي - هي حالة حداد مستمرة، بيصاحبها فقدان اللغة (اللغة العاطفية)، وعدم القدرة على النطق بأهم مفرداتها وأجملها: «أنا باحبك»، واستبدالها بكلمات بديلة من لغة ثانية هي لغة الصداقة اللي مش بالضرورة يجيدها المحب.

البنطلون الجينز ماركة «جاب» اللي كان عزيز عليّ جدًّا اتقطع، وبعدها بيوم جاتي دعوة لحضور افتتاح مهرجان روتردام السينمائي، وما كنتش عامل حسابي إني أتعزم على حفلة «جالا» زي دي، لكن لقيت معايا بدلة متبهدة وجزمة سودا من غير رباط. حمدت ربنا، وخرجت أشتري رباط وورنيش.

بعد ما رجعت عملت جنازة صامته للبنطلون الجينز، وبعدين قطعته حتت، وقلت الحتت دي ممكن تكفي ألمع بيها جزم بقية حياتي، وبكدا تخلد ذكرى البنطلون للأبد. الجزمة بعد ما حطيت عليها الورنيش بقي شكلها متلغوص جدًّا، لكن لما مسكتها وقعدت أمشي عليها قماشة البنطلون «الجاب» بدأت تلمع كأنها جديدة، وبدأت أسأل نفسي: هوّ أنا إزاي اتعلمت ألمع جزم كدا، مع إني تقريبًا عمري ما بالمع جزمي.

وأنا بالمع الجزمة، رجعت بيّ الذاكرة لسنة ٢٠٠٠. كان بقالي وقتها سنة عاطل عن العمل، وما باعملش حاجة غير إني أتسكع ما بين القهاوي. وقتها حسيت إن كل اللي أعرفهم بيتنكروني، ومحدش منهم عاوز يساعدني لأقي شغل ولا حتى يعرفني، ما عدا الإنسان الجميل، طيّب الله ثراه، إبراهيم أصلان، اللي كان مقتنع إن الحاجات اللي باكتبها وملهاش معنى دي تبقى ولا مؤاخذة «قصص»، وكان بينشري حتة كل فترة أعيش بمكافأته لغاية ما أفلس تاني، فاكتب حتة تانية. وفي وسط الأزمة دي افتكرت حكمة قديمة إنك مش ممكن تلاقي حد يساعدك إلا لما تساعد إنت الناس، وقررت إني أساعد أي حد يطلب مساعدتي لو أقدر أساعده.

في يوم الصبح والقهوة شبه فاضية، ولسه متريش وقابض مكافأة نشر، لقيت على القهوة معايا شاب أمريكي نحيل شبه «جاك كيرواك» في شبابه، ورامي «الباك باج» بتاعته على الأرض وشكله ضايع. قلت يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم. قرب مني وسألني إذا كان ممكن أديله سيجارة فاديتله سيجارة، سألني إذا كان ممكن أعزمه على كوباية شاي فعزمته، وقعد. بعد الشاي عرفت إن اسمه «كريج»، وقالني: «أنا ما أكلتشي من إمبراح»، فأخذته على عربية كشري، وشاف العمال بيطلبوا ساندويتشات مكرونة، فقالي إنه عاوز واحد، فجبته ساندويتش مكرونة.

حكالي إنه سافر من أمريكا وهو مقرر يتسكح على خلق الله في كل حتة، وإنه تقريبًا لف أوروبا كلها، وأكثر مدينة عجبته كانت باريس، سألته ليه، فقالي عشان واحد صاحبه يبقى صاحب طبخة السفارة الفنلندية، وكل يوم كانت تهرهم لمطبخ السفارة ياكلوا ويشربوا ببلاش.

المهم حكالي إن صاحبه الإنجليزية هتيجي مصر ومعاها فلوس ومشكلته هتتحل، وعاوز مكان يسكن فيه عشان مش لاقى حتة يروحها، فخذته على أوتيل «مافيتا ستوريا» في شارع عماد الدين، وقابلتنا صاحبة الأوتيل الفرنسية بترحاب، ورمى شنطته الباك باج في الأوضة، وقالتنا صاحبة الأوتيل إن أهم حاجة عندها هيّ النضافة، وهوّ قالها: «طبعا». يا دوب خد المفتاح وقالي إنه عاوز يشتري شيكارة جبس، فقلتله: «ليه؟»، قالي إنه بيعمل تماثيل جبس وممكن يبيعهها، ووعدني إنه هيديني تمن شيكارة الجبس لما يبيع أول تماثل.

نزلنا، ورحنا للموان، واشترينا شيكارة الجبس، ورفعها على كتفه، ورجع بيها على الأوتيل، وأنا بصيت لقيته
بيخمر الجبس على أرضية البلكونة، فقررت أنسحب قبل ما صاحبة الأوتيل تشوفه وتطلبنا البوليس.

بالليل جه على القهوة، وسألني: «هو اللي يشرب وما بيدفعش هنا بيعملوا فيه إيه؟»، قتلته: «بيخلوه
يكنس القهوة»، فقعد طلب في حاجات، وعلى نص الليل راح جاب المقشة وقعد يكنس الأرض، وبدأ
يمشي الزباين ويقلب الكراسي على الطرابيزات عشان يكنس القهوة. صاحب القهوة سألني: «هو بيعمل
إيه؟»، فحكيتله، قالي: «طب قوله يقعد وما يدفعش، بس ما يقطعش عيشنا»، فقلتلته، فابتسم وقعد.

فشل موضوع التماثيل الجبس فشل ذريع، وبعد كام يوم جت صاحبة كريج الإنجليزية، ومحدث كان
ممكن يصدق إن الصعلوك دا اللي هدومه متقطعة ممكن يكون له صديقة جميلة كدا، وطبعاً مفيش قهوة نقعد
عليها إلا لما تتعاكس عيني عينك، لدرجة إن مرة جه واحد قعد على الطرابيزة اللي جنبنا ومد بوزه على
الطرابيزة بتاعتنا وبقي كأنه قاعد معانا، ف«كريج» قالي ما تخليه يجي يقعد معانا أحسن، فقلتلته، قام جاب
كرسي وجه قعد معانا بجد، و«كريج» يقولي: «هاقوم أضربه»، وأنا أقوله: «بلاش، الصبر أحسن»، وفهّمت
الأخ اللي قعد معانا إن اللي عمله دا ما يصحش.

وعدت الأيام وصاحبة «كريج» رجعت إنجلترا، و«كريج» رجع تاني وحيد ومفلس، وقالي إنه معهوش
فلوس يدفع حساب الأوتيل، ومعهوش تمن تذكرة السفر لباريس، ولا تمن تذكرة السفر من باريس
لأمريكا. المهم وقتها أنا كمان ما كانش عندي مكان ساكن فيه، بس كنت بابات في أوضة فوق سطوح في
وسط البلد متنازع على ملكيتها، وكانت بتأوي أحياناً عشرات البشر، فقلتلته إنه ممكن ينضم لنا، بس موضوع
التذكرة دا ما اعرفش ممكن أساعده فيه إزاي.

تاني يوم واحنا قاعدين على القهوة، جه الشاب اللي بيلمع الجزم وأخذ جزمي يلمعها، وفجأة جاتي
فكرة. قتلته: «بص يا كريج، إنت الحل الوحيد إنك تلمع جزم». وسألت الشاب اللي بيلمع بيحجب
الصندوق الخشب وعدة التلميع منين فقالي من «درب سعادة»، قتلته إننا هنروح نجيب الحاجة من هناك
وهنرجع، وهو يقعد «كريج» جنبه يتفرج عليه وهو بيلمع ويتعلم.

المهم رحنا «درب سعادة»، وجبنا كل الحاجات المطلوبة في شيكارة، مشي «كريج» شايلها على ظهره،
ورجعته قعد جنب الشاب اللي بيلمع جزم. وفي خلال أسبوع كان «كريج» لقط سر الصنعة. وشكرت
الشاب على إنه علم «كريج»، والشاب طلع حته قماش قטיפه ناعمة وإداها لكريج، وقالي أقوله إن دي هدية
غالية جداً لأن هي دي اللي بتدي للجزمة اللمعة في النهاية.

أنا فهّمت «كريج» إن الخطة اللي بعد كدا إنه يلاقي حته فاضية يقعد فيها يلمع الجزم، وأي حد يقف يلمع
عنده يقوله إنه أمريكياني، عشان يدولوه فلوس زيادة، وفعلاً قدر «كريج» يلم تمن تذكرة السفر لباريس.

وقررت إني أوصل «كريج» للمطار، ولقيته شايل شيكارة التلميع على كتفه، وسألته إذا كان هياخذها
معاه، فقالي: «هي دي اللي هترجعه أمريكا تاني». في الطريق للمطار «كريج» قالي: «ما تجيب صندوق زي دا
وتيجي نيويورك. هناك ممكن تاخذ في تلميع الجزمة عشرة دولار، ونعيش ملوك في نيويورك». وأنا رديت

بتعلي وقلته: «أنا حاسس إني عندي مهمة في الحياة أبعد من إني ألمع جزم». ف«كريج» سألني: «زي إيه؟»، فقلته: «زي إني أساعد ناس زيك يلاقوا طريقهم في الحياة». وش «كريج» انشكح، وقعد يشكرني زيادة عن اللازم.

بعد ما وصلت «كريج» المطار، اتنفست الصعداء زي ما بيقولوا، وخذت أتوبيس المطار لوسط البلد. ياه! كل دا رجع في ذاكرتي تاني بسبب تلميح جزمة حقيرة. الواحد لو كان تواضع وسابه من المهمة الأبعد دي، وعمل زي «كريج» من سنة ٢٠٠٠، كان زمانه عايش في نيويورك دلوقت. قلت لنفسني: يلاً، محدش بياخذ أكثر من رزقه. ولبست بسرعة عشان ألحق الافتتاح.

سنة ١٩٩٨ رحلت جامعة «بيروجيا» للأجانب في إيطاليا أدرس إيطالي، وكان فيه مخرج مسرح يعمل ورش تمثيل مع الأجانب، فأنا رحلت. أول يوم كان فيه تدريبات على التوافق العضلي الحركي، وأنا فشلت لأن التفكير عندي ييسق الحركة. ثاني تدريب كان على الرقص، وأنا إنسان فاشل تمامًا في الرقص لأنه حركة بدون تفكير، لكن الموضوع كان لعبة: يتمشى الناس على المسرح ويبدأوا يبصوا لبعض لغاية ما الحركة بتقف، ويكون كل حد اختار هيرقص مع مين، أنا وقع حظي في بنت ألمانية كان عندها ١٩ سنة، واتعادت اللعبة ثاني فوق حظي فيها برضه، كان فيه حاجة أقوى مني ومنها بتخلي لما عينينا تبص لبعض ما تبعدش عن بعض. كان فيه استراحة، فخرجنا كلنا، ومن غير أي مقدمات جت البنت الألمانية وقالتلي بجدية الألمان المعروفة: «أنا على فكرة مش عايزة أعمل علاقة معاك»، فأنا رديت عليها باستهتار المصريين المعروف: «ولا أنا». وقررت إني ما اروحش ثاني الورشة وأركز في دراستي. بعد شهر كنت قاعد على كنبه قدام الفصل مع أستاذ من الأساتذة وبتكلم في السينما، وفجأة لقيتها جاية من بعيد، وعملت نفسي مش شايفها وكملت كلام، لغاية ما جت وقعدت على الأرض وحطت ذراعها على رجلي وكفها تحت وشها، وشعرها الأشقر الطويل بقى سايح على رجلي، وقالتلي وهي بصالي من تحت لفوق: «إنت وحشتني!». الأستاذ حس بحرج الموقف فاستأذن إنه لازم يروح المحاضرة، وقامت قعدت جنبي وسلمت عليّ وما سابتش إيدي، وسألتنني إذا كنت فاضي، ورغم إني كان عندي محاضرة لكن قررت أفوتها، وخرجنا مع بعض من الجامعة، ومن يومها ما بقتيش مواظب على المحاضرات زي الأول، ولولا البنت دي كنت زماني اتعلمت إيطالي زي الناس، بس الحمد لله الوقت ما ضعش هدر، واتعلمت حاجات ثانية ما كنتش هاتعلمها لو ركزت في الدراسة بس.

سنة ١٩٩٨ كنت إنسان مدعي ثقافة، زي ما أنا لغاية دلوقت، وكنت قرئت في الجورنال الإيطالي إن فيه ندوة بينظمها بينالي فينيسيا عن التبادل ما بين الفنون، هيحاضر فيها «أومبرتو إيكو» والمخرج البريطاني «بيتر جريناواي» و«فينشينزو تشيرامي»، وقررت أسافر أحضرها. وصلت فينيسيا متأخر اليوم اللي قبل الندوة، وفضلت ماشي لغاية ما وصلت ساحة القديس ماركو، ودورت على أقرب أوتيل أقعد فيه، ولقيت أوتيل جنب القديس ماركو بس كان غالي، وحجزت فيه، ونزلت بالليل أتمشى في فينيسيا، وروحت نمت، بس ما عرفتش أنام كويس لأن الناس ما بتنامش في فينيسيا ويفضلوا يعملوا إزعاج طول الليل.

نزلت ثاني يوم الصبح بدري رايح مكان الندوة اللي كانت في المدرسة الكبرى للقديس جوفاني التبشيري، اللي تاريخ إنشائها بيرجع للقرن الثلاثاشر. ركبت المركب من ساحة القديس ماركو لساحة القديس بولو، وفضلت ماشي بالخريطة لغاية ما وصلت المدرسة. أول ما دخلت المدرسة نسيت أنا رايح ليه، وقعدت أبص على الحيطان والأسقف والأرضيات كأني عمري ما شفت قصور قبل كدا.

المهم وصلت للقاعة اللي فيها المحاضرة، وقعدت أسمع المحاضرات، وبدأ «أومبرتو إيكو»، وكالعادة قضى على فرصة إن أي حد يتكلم بعده، وهو قاعد بدقنه الطويلة وشعره اللي مش متسرح يتكلم بيّقه وعينيه وإيديه، ويقول نكت في وسط الكلام الجذ، والناس منفعله ومتأثرة، ودخل بعده «بيتر جريناواي» بصوته الهادي وإيقاعه التأملي، وبدأت الناس تنام وتقول «إحم إحم»، و«بيتر جريناواي» مكمل لغاية ما مدير الندوة إدى فترة راحة للناس على إن الندوة تكمل بعدها.

خرجنا كلنا، وخرج كل واحد من اللي كانوا بيحاضروا لوحده، وكل الناس اتجمعت قدام المدرسة يشموا هوا. «بيتر جريناواي» ركن على جنب وبص في الأرض فما راحش حد يكلمه، و«أومبرتو إيكو» اختار باب من الأبواب الجميلة ووقف قدامه، واتلموا المصورين حواليه كأنهم بيصوروا نجم سينمائي، وبأداء المحترفين بدأ «أومبرتو إيكو» يعمل بوزات، مرّة باصص لفوق ومرّة بروفايل ومرّة لتحت ومرّة إيده تحت خده، واستمر المشهد دا خمس دقائق لغاية ما قال للمصورين: «باستا.. فينيتو».

أنا وقفت على جنب زي أي مدعي ثقافة أعفر في سيجارة، وبعدين جه واحد من المصورين وقالي إن الناس اللي في الندوة دول مملين جدًّا، فأبديت موافقة على كلامه، فطلب سيجارة، وطلعت علبة السجاير الكاميل واديتله سيجارة، فقالي: «إنت أمريكي؟»، فقلتله: «لأ. ليه؟»، قالي: «عشان بتدخن كاميل»، فعرفت إنه أمريكي أكيد، وشاورتله على الرسمة اللي على علبة السجاير وقتلتله: «شايف الراجل اللي فوق الجمل دا؟»، قالي: «آه شايفه»، قلتله: «لما الدنيا تليل وهوّ في الصحرا يبات فين؟»، فقالي: «يبات فوق الجمل طبعًا». قمت لفيت علبة السجاير الناحية اللي فيها رسمة الأوتيل في الصحرا وقتلتله: «لأ، ينام في الأوتيل يا فالح». ضحك الشاب الأمريكي، وعرفت إنه مصور اسمه «ريموند»، بيشتغل في شركة الأزياء «بينتون»، وعرفته إني من مصر، وسألني قاعد فين، فقلتله إني قاعد في أوتيل جنب ساحة القديس ماركو، فقالي: «إنت مجنون!

إنت إزاي تعمل كذا؟! إحنا لازم نروح الأوتيل حالاً وتحاسب وتاخذ شنطتك!!»، فقلتله: «هنوديا فين؟»، فقالي: «هنأجر لها خزنة في محطة القطر»، قلتله: «طب هابات فين؟»، قالي: «هتفرج».

المهم خدنا قرار ما نكملش الندوة ومشينا، وراح معايا الأوتيل حاسبت وخذت شنطتي، ورحنا المحطة أجرت خزنة، ومشينا في البلد وأنا بقيت عارف إن مفيش حته أرجعلها. سألته: «هنروح فين؟»، فقالي إن فيه مجموعة من الأمريكان زمايله في «بيتون» مسافرين وهنروح نقضي شوية وقت معاهم، وكانوا قاعدين في فندق «الحقبة الجميلة» اللي جنب محطة القديسة لوتشيا. المهم أصحاب «ريموند» كانوا لطاف جدًّا، وعزمونا على الغدا والمشاريب، وقضينا وقت جميل، وكان فيهم واحد قالي إنه عازمني وإن معاه فلوس إيطالي مش عارف هيعمل بيها إيه لما يسافر، فهيصرفها، وقعدنا نتمشى في فينيسيا، لغاية ما «ريموند» قالي إن عنده ميعاد، واتفقنا أقاله في بار اسمه «البار الأزرق» بعد ساعة. أصدقاء «ريموند» قالولي إنهم هيمشوا بالليل، وإني لو عاوز ممكن أروح آخذ مفتاح أوضة حد منهم وأبيت فيها وأسلم المفتاح تاني يوم الضهر.

رحت قابلت «ريموند» في البار الأزرق، وخرج «ريموند» ومعاه شاب إيطالي ووقفوا يدخنوا حشيش على القناة، وطلع راجل عجوز إيطالي يقولههم يروحوا يدخنوا بعيد، فالشاب الإيطالي قاله: «ادخل يا جدو نام»، فدخل ينام.

المهم قلت لـ«ريموند» إننا نروح ناخذ المفاتيح من أصحابه ونبيت في أوتيل «الحقبة الجميلة»، فقالي: «أنا ما باتش في أوتيلات، لو عايز تبيت في أوتيل روح بيت في أوتيل»، فعرفت إن الموضوع موضوع مبدأ، وسألته: «طب هنبيت فين؟»، فقالي: «هتفرج».

المهم قعدنا نلف على كل البارات، وكل شوية ينضمنا حد ما نعرفوش ما عندوش مكان يبيت فيه، لغاية ما بقينا أكثر من عشر شبان وبنات. وسألت «ريموند» تاني هنبيت فين، فقالي: «مكان ما دول هيبيتوا. اصبر على رزقك»، فصبرت، وقبل ما أفقد الأمل بثواني بنت من البنات شافت فنان من فينيسيا، وحكتله على الظرف اللي إحنا فيه، فقرر بيبتنا عنده.

كان بيته من دورين، وزى بيوت الفنانين البوهيميين، كان مفيهوش إلا عفش قليل جدًّا، ومفيهوش إلا أوضة نوم واحدة، وهو قال: «أنا هانام في أوضتي وانتو اتصرفوا»، وجاب مرتبتين نفرشهم وننام عليهم. أنا الحثة الشرقي الخجولة اللي في بنت، ورفضت إني أنام جنب بنات، وقررت إني أنام على كرسي هزاز في الصالة جنب اللي نايمين، لكن بنت من البنات جت تقولي: «تعالى نام على المرتبة، فيه مكان ليك»، ونمت جنبها، وفجأة ما بقيتش عارف أنام. كانت البنت نامت، وبعد ما نامت اتديرت ناحيتي وحضنتني، وأنا ما رضيتش أضيع فرصة إني أتأمل في وشها الجميل، لغاية ما النوم سيطر عليّ فنمت.

أنا ما صدقت نمت شوية ولقيت دي بتصحيني، فسألتها: «فيه إيه؟»، فقالتلي: «هنروح نجيب فطار قبل ما الباقيين يصحوا». وفعلاً خرجنا، ورحنا فطرنا سوا، واشترت كرواسون لكل الناس، واشترت جورنال إنجليزي، وورطني مقال منشور ليها فيه، وعرفت إنها بتشتغل صحفية سفر ورحلات واسمها «إيريس»، وسألتني أنا مين، فقلتله إني على باب الله، والظاهر صعبت عليها، فعزمتني نركب مركب بعد ما نودي

القطار. ونزلنا أجريناً مركب من مراكب فينيسيا المشهورة، وقعد المراكبي يلف بينا ونتكلم، وقتلتها إن روايتي المفضلة «على الطريق» لـ«جاك كيرواك»، وقالتلي: «وأنا كمان»، وقالتلي كمان: «بوسني»، وكانت أول مرّة في حياتي واحدة تطلب مني دا، فبوستها، ووقتها وأنا على المركب عرفت ليه الناس بتروح فينيسيا، وكانت كل حاجة جميلة: الميه، وأشعة الشمس، والسياح، كل حاجة... بعد البوس قالتلي: «ما تيجي لندن»، فقلت لنفسي أروح لندن أعمل إيه، فقالتلي: «إحنا مش هنعيش في لندن، إحنا هنقضي الصيف في سان بطرسبورج، والشتا في طهران، وفي النص هنروح أماكن ما رحناهاش قبل كدا»، فبصيتها وابتسمت، ويومها عرفت إن البنات ساعات بتكون أحلامها جميلة، لكني قتلها إني لازم أرجع روما، ومش هاقدر أروح لندن، وكان لازم ألحق قطر روما، فجت معايا المحطة خدت شنطتي من الخزانة، وسلمت عليّ وحضنتني، وقتلتها إني نسيت أسلم على «ريموند» وأقوله إني ماشي، فقالتلي إنها هتسلملي عليه، ووقفت معايا لغاية ما القطر طلع. وفي القطر فضلت أفكر طول الرحلة في نظرتها ليّ، والقطر بيتحرك واللقطة فضلت تتعاد وتفكرني باليوم دا اللي ملامحه ما بتروحش من الذاكرة.

فاكر إني اتفرجت على فيلم «سرقة الجمال» لـ«بيرناردو بيرتولوتشي» في سينما روما في ميدان باربريني، وخرجت من الفيلم عندي شحنة غريبة إني أسافر، وفعلاً قضيت شهر باسافر من بلد لبلد، والبلد اللي تعجبني أقعد فيها شوية، والبلد اللي ما تعجبنيش أسيبها وأمشي.

فاكر إني كنت راكب القطر اللي رايح من بادوفا لميلانو، فلقيت بنت تحت العشرين واقفة قدامي شبه بطلة فيلم «سرقة الجمال»: نفس الوش المطيول الحلو، والأنف الفارسية، والشعر اللي متساب بطوله. فضلت أبصلها وأنا بأسأل نفسي لو كانت واحدة بالها إني أبصلها، لغاية ما بصت، وابتسمت، فقربت منها.

بدأت حوار عادي معاها، وعرفت منها إنها طالبة بتدرس في بادوفا ورايحة بيتها في بولونيا، وإنها بتركب القطر ببلاش لأن أبوها سواق قطر.

حكيتها إني رايح أزور صديق في مونزا وهايت عنده، وإن ثاني يوم كان بيتعمل سباق الفورمولا واحد في مونزا. وسألتها إذا كانت تحب نقضي يوم مع بعض، فوافقت.

نزلنا ميلانو، ورحنا وسط البلد، زرنا الدومو، وشُفنا عربيات سباق الفورمولا واحد المعروضة في الشوارع، وأكلنا جيلاتى، وقلنا كلام كثير وضحكنا أكثر.

في مونزا قعدنا مع صديقي وصديقتة نتفرج على التلفزيون، واتعشنا، وورانا الأوضة اللي هنام فيها. ليلتها ما نمتش، وكنت عاوز أسجل كل لحظة من جمالها، وكل لفظة من وشها، وكل حركة من شعرها. وتاني يوم الصبح كانت طيارات الهليكوبتر بتنزل في استاد مونزا، وهي وقف في البلكونة تتفرج على الطيارات وتهتف بفرح، وأنا قلبي بينط جوايا مع كل نظة لرجليها من على الأرض.

رجعنا بعد كذا محطة القطر، عشان كل واحد يروح في طريقه، وكل خطوة من خطواتي كانت حزينة، وهي لاحظت، فحطت إيديها على وشي وقالتي إنها عمرها ما كانت سعيدة زي اليوم دا، وقالتي إنها عمرها ما هتساني.

قلت لها: «ما تمشيش»، فابتسمت، لكن مشيت، ونسيتني، واتسرق الجمال مني.

في أول فترات إقامتي في روما في التسعينيات من القرن اللي فات، كنت باروح أتمشى في حديقة فيلا آدا اللي مساحتها ٤٥٠ فدان وتاني أكبر حديقة في روما بعد حديقة فيلا دوريا بامفيللي. فيلا آدا كانت بتلم كل صيغ روما، وهناك اتعرفت على مجموعة صيغ كنت باقفلهم جون لما يلعبوا كورة - لأن ما كانش فارق معاهم يخسروا كام. وكان من ضمن المجموعة دي «فايو». «فايو» للوهلة الأولى بيان ثقيل الضل، لكن لما اتعرفت عليه بقى من أصدقائي المقربين جداً. «فايو» كان رومانو - أو من سكان روما الأصليين - ودول دايمًا بيتحسروا على وضع روما قبل ما تتملي بالمهاجرين من كل حتة، ومتعاطف بشكل إنساني مع المهاجرين، فأغلب أصحابه مهاجرين، كاثوليكي متدين جداً ولكنه ليبرالي. لما اتعرفت على «فايو» أكثر، عرفت إنه ما خلصش الجامعة، يعني خلص كل حاجة بس فاضله إنه يكتب بحث التخرج، وعشان ما عرفش يكتب بحث التخرج قرر إنه يشتغل كاتب أبحاث تخرج: بيروحله الناس اللي عاوزين يتخرجوا في أي كلية في أي قسم ويقولوله عاوزين يكتبوا بحث عن إيه وهو يكتبه. كان بيكتب أبحاث تخرج من أول الكيمياء لغاية الأدب والتاريخ القديم، ومن أهم نجاحات «فايو» إنه حول قصايد «فيرناندو بيسوا» لأغاني، وباعها لفرق الراب في روما، ولاقت نجاح كبير. قبل ما أسافر، «فايو» طبع خمس نسخ من روايته الوحيدة اللي كانت عن التجول في حديقة فيلا آدا، وأهداني نسخة منها عشان أفكر روما لما أقرأها، وللأسف ما قربتهاش. دلوقت نفسي ألاقها وأقعد أقرأها، ومتأكد إنني هالاقى فيها حاجة بتفكرني بأيام التسكع بلا هدف اللي قضيتها في الحديقة العظيمة.

فاكر وأنا عندي خمسة وعشرين سنة إني كنت راكب القطر من باريس لروما، وأول ما وصلت روما كنت عاوز أروح حديقة فيلا آدا، وركبت الترام ورحت هناك، وأنا داخل من الباب لقيت مجموعة شباب في ثانوي شايلين عدتهم كلها: جيتار، وطبل، وكرة، وكاميرا تصوير فوتوغرافيا. الشاب اللي شايل الكاميرا قالي: «إنت جاي تدور على الدو؟»، فقلتله: «آه»، قالي: «الدو اتقبض عليه، وبص قدامك عشان المخبرين محاطين الجنية». كملت مشي بطريقة منتظمة ما تثيرش الشك، بس سألته: «إنت تعرف إني أعرف الدو إزاي؟»، فقالي: «أنا أعرف كل حد ببيجي هنا. الجنية دي بيتي»، وبعدين قالي: «تعالى معانا، إحنا مش هنسيك، اللي معاه يدي للي معهوش». رحنا قعدنا على كنبه في الجنية، وفتح شنته وطلع صور طابعها بالأبيض والأسود، كانت أغلبها صور لناس بتقعد في الجنية، وكانت تكويناتها جميلة فعلاً، ولما بصيت عليها قلتله: «إنت فنان يا ابني». وشفن صورة لي وأنا واقف مع الدو، قالي: «لك في الأفغاني؟»، قلتله: «ما جربتوش»، قالي: «تجربه»، وقعدوا يلفوا ويعزموا عليّ، وأنا ما قدرتش أرفض، ودخنت معاهم، ولعبوا مزيكا وانبسطنا، وبعدين قالوا نلعب كورة، فقلتلهم إني ما باعرفش، فقالولي هتعرف، وقعدنا نلعب شوية لغاية ما حسيت إني تعبت فانسحبت، وخرجت من الجنية وكنت عطشان، شربت إزازة كولا واتكرعت، وحسيت إني مش متوازن، وبديت أمشي من جنية لجنية وأبعد عن الطرق الأسفلت، وبديت أسمع صوت غربان، فبصيت فوق لقيت سرب غربان ماشي ورايا فكملت مشي، ولما وصلت فيلا بورجيزي اتطمنت إني قربت، لكن وأنا ماشي رجلي غرزت في حاجة ما قدرتش أعرف هيّ إيه، وبديت أشم ريحة وحشة، فحاولت أنضف الجزمة ما عرفتش، وقدرت أخيراً أروح. اكتشفت إني كنت سايب البلكونة مفتوحة، وبدأت الغربان تتجمع على الستارة، فخفت، ومن خوفاي قفلت باب البلكونة وخليت الستارة بره، واترميت على السرير وصوت الغربان مش مخليني عارف أنا، وحسيت بهبوط، وبعدين غبت عن الوعي وما بقيتش سامع صوت الغربان ولا أي صوت تاني غير صوت دقات قلبي اللي كنت حاسس إنه هيقف، وبعدين ما بقيتش دي كمان سامعها، وعرفت إني مت، وجه شيخ قعد جنبي وقرالي الفاتحة، وبعدين جه البابا يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان وكانت واقفة وراه بنت جميلة مع أمها، وأمها قعدت تقولها: «شايفة البابا خدوده حلوة إزاي؟!»، والبابا قال كلام باللاتيني ما فهمتوش ومشي، وبعدين فضلت ميت كذا يوم، لغاية ما ظهر ملاك بأجنحة على صورة بنت جميلة زي البنات في الأفلام اللي كنت باحبها قبل ما أموت، وكانت بتتحرك جناحتها بصعوبة بسبب إن الأوضة كانت ضيقة، وقعدت جنبي وقالتلي: «أنا باحبك وجاية عشان أرجعك الحياة تاني»، وفضلت جنبي لغاية ما رجعت الحياة، وعلى أد ما كنت فرحان على أد ما زعلت إن البنت الجميلة اختفت من حياتي وما ظهرتش تاني.

الإنسان ساعات عشان يعيش لازم يدعي، وأنا لما وصلت إيطاليا كنت باقرا قصيدة «الشاعر هو مدعي» لـ«فيرناندو بيسوا»، وقررت إني هادعي إني شاعر، على أساس إن محدش من اللي هاقوله إني شاعر هيعرف عربي ومش هيعلمي امتحان في الشعر، وفعلاً كان أي حد يسألني بتعمل إيه، أقوله أنا شاعر، وكان الناس بيحتفوا بيّ احتفاء كبير على أساس إن شاعر دي حاجة كبيرة في إيطاليا، لكن مش دائماً بتعدي العواقب سليمة. وفي يوم كنت باتعشى مع أصدقاء ليّ من الكُتاب والناشرين، وواحد سألني: «بتعمل إيه؟»، فرديت عليه الرد المعتاد إني شاعر من مصر، فرحب بيّ بالعربي، وقال لي إنه دارس عربي في معهد الاستشراق ويجب يقرأ أشعاري، فوعدهت إني أقريه، وعشان كان مسافر نابولي طلب مني إذا ينفع نتقابل ثاني يوم، وكان دا أكبر تحدي واجهني في حياتي: إني أكتب أعمال الشعرية في ليلة واحدة. وقررت إني أكتب رسالة طويلة لـ«جان أرتور ريمبو» أقوله فيها إني هاساعده يلاقي بيت وما عادش هيعيش متشرد، وكتبت يومها خمس مطولات إديتهاله ثاني يوم، وبعدها بكذا يوم قالي إنه إدهم لأستاذة في معهد الاستشراق وترجمتهم، وبعثلي الترجمة فما فهمتس منها حاجة.

بعدها بأسبوع كلمني ثاني، وقال لي إنهم قدموا أشعاري لمهرجان روما الشعري، وإنهم اختاروني عشان ألقى أشعاري في المهرجان، وإن دا مهرجان معروف، وإنه قرا فيه شعرا زي «آلان جينسبرج» و«لورانس فيرلنجتي» وغيرهم. أنا ما عرفتش أقول إيه، زي اللي أصابته مصيبة غير متوقعة، بس قررت أتماسك. رح المهرجان عشان أشوف الشعرا بيقرأوا إزاي، وكان فيه شاعر إنجليزي عرفت إنه الأكثر مبيعاً في إنجلترا، وعجبنتي طريقة إلقاءه، وفكرت إن أكيد الشاعر الحقيقي لازم يعمل زيه، كان طالع على المسرح بيتطوح من السكر، وماسك ورق في إيده عشان يفتكر هو هيقرا إيه، وبعدين كل ما يخلص قراية ورقة يرميها على المسرح فالناس تصقف. عجبنتي اللعبة: أقرأ، أرمي الورقة على المسرح، الناس تصقف.

بعد ما خالص قراية جه قعد على طرايزة الشعرا جنبي، فقلتلته إنه عجبني جداً إلقاءه، وإني عاوز نصيحة منه لأنهم عازمني أقرأ شعر، وأنا عمري ما قرئت حاجة قدام حد، ومش عارف أعمل إيه، فقالي: «أنصحك تشرب ويسكي كتير نضيف. مفيش نصيحة تانية!»، وقام طلع إزازه ويسكي صغيرة وقالي: «دي هدية مني ليك. دا أنصف ويسكي ممكن تشربه». وكدا عرفت ثاني سر من أسرار الصنعة: الويسكي النضيف.

رحت السكن وفتحت إزازه الويسكي وشميت ريحتها فكنت هارجع، وللحظة فكرت أقاوم الشيطان وأكب الإزازه في الحمام، لكن سبتها ونمت، وصحيت ثاني يوم لقيت إن مفيش حل، لازم هاروح وأقرأ، وقفلت مناخيري واستغفرت ربنا وشربت، وفجأة حسيت إني بقيت شاعر.

كانوا حاطني في برنامج اسمه «الشعراء المتنقلين»، بيقرأ فيه شاعر كندي مقيم في روما، وشاعرة فرنسية واخدة جائزة «ميديسيس» للشعر، وأنا. أنا طلع عيني عشان أوصل بالأتوبيس، ولما وصلت لقيت الشاعر الكندي نازل من عربية فخمة معاه مراته وكلب ضخمة وأنيق، وشكله ما كانش شاعر زي اللي قابلته اليوم

اللي قبله، وكان معاه وفد من سفارة كندا. والشاعرة الفرنسية جاية لابسة أشيك حاجة عندها، وما عرفتش أحكم إذا كانت شاعرة ولا لا، لأنني ما كنتش شفت شاعرات قبل كدا، وجه معاهها وفد من السفارة ومن الأكاديمية الفرنسية في روما.

قرا الشاعر الكندي بالفرنساوي والجمهور صقف، وقرت الشاعرة الفرنسية والجمهور صقف، وطلعت على المسرح معايا الورق، وواقفة جنبني المترجمة عشان لما أقرأ مترجم. لكن بما إن الجمهور كله ما يعرفش عربي أنا قررت إن مش هيفرق معاهم هاقول إيه، وقررت ما التزمش بالنص، والمترجمة ارتبكت. كنت أمسك الورقة أبص فيها وبعدين أقول حاجة تانية وأرمي الورقة على الأرض والجمهور يصقف. المترجمة قالتلي إنها مش قادرة تتابعني، فقلتلها إن الجمهور مش هيفرق معاه أنا باقول إيه، وهي تقرأ المترجم. لما خلصت ونزلت من على المسرح لقيت معجبات جاين يتكلموا معايا، ودي كانت أول مرّة في حياتي أعرف يعني إيه معجبات، وسبتلهم كلهم رقم تلفوني ومشيت، ويوميها جاتلي أجمل مكالمة تلفون بالليل من واحدة قالتلي إنها مش عارفة تنام من غير ما تسمع مني قصيدة بالعربي، ودي كانت أول مرّة أعرف إن العربي ممكن يبقى مؤثر كدا، والحمد لله عرفت أنيمها.

من حوالي ١٧ سنة قررت إني أبطل كتابة.

كنت أخذت شنطتي ورحت أركب المترو عشان أوصل محطة قطر ترميني في روما. واحدة عجيرية من أصول يوغسلافية نثت شنطة واحدة إيطالية وطلعت تجري، ووقفت أنفرج بدهشة على المشهد. كان فيه ظابط هيمسك الست العجيرية بس فلتت منه. الإيطالية اللي اتسرت شنطتها راحت للظابط وقالته: «حضرتك ما بتقومش بشغلك! حضرتك متواطئ مع الحرامية وما عندكش ضمير، ولو بتشتغل بضمير كنت تمسك الأشكال دي قبل ما يسرقوا شنط الناس! حضرتك ما تستاهلش اللبس اللي إنت لابسه!». الظابط ما بقاش عارف يفتح بقة بعد ما اتمسح بكرامته الأرض.

ركبت القطر لفينيسيا وكانت معايا رواية «الثلاثة أيام الأخيرة في حياة فيرناندو بيسوا» لـ«أنطونيو تابوكي»، اللي كنت بديت أقرأها في الليلة اللي قبلها، فكملت قرابتها في القطر، وعيني اتقفلت من التعب، وسمعت في الحلم صوت بيقولي: «فيرناندو ما ماتش»، فصحيت، ووصلت فينيسيا وسألت على ميعاد قطر تريستي، فعرفت إني لسه قدامي كذا ساعة أقضيهم في فينيسيا، فسبت شنطتي في خزانة بمحطة القطر وخرجت أتمشى في المدينة لغاية ما وصلت للمكتبة الوطنية في ساحة سان ماركو. وقفت في الأول أتأمل جمال المبنى من بره، والتمايل فوق المكتبة. ست عجوزة فوق التمانين قصيرة ومنحنية الظهر وقفت تبص عليّ من تحت لفوق زي ما كنت بابص للمبنى من تحت لفوق، وسألتنني إذا كنت بادور على حاجة، فقلتلها: «أنا مستني ميعاد القطر اللي رايح تريستي»، فقلتلني بصوت واطي كأنها مش عاوزة حد يسمع: «فيرناندو بيسوا عايش هنا»، وشاورتلي على المكتبة الوطنية. دخلت المكتبة الوطنية وكانت فاضية تمامًا زي بيوت الأشباح، وقعدت أتأمل روعة مبنى المكتبة من جوه، وفجأة بدأت أسمع صوت خطوات رجلين عالي، بصيت لقيت «فيرناندو بيسوا» لابس بدلة وبيتحرك بخفة في المكتبة بطوله المعتاد، وماسك كتاب ضخمة اسمه «الفن الشرقي»، أخده وقعد يقرأ فيه بانهاك، ويكتب في نفس الوقت. رغم إن دي كانت فرصتي الوحيدة إني أسلم على «فيرناندو بيسوا»، لكن إحراجي من إني أقطع عليه خلوته وخوفي إن القطر يفوتني منعني من إني أقرب منه.

رجعت محطة القطر، وخذت شنطتي، وركبت القطر اللي رايح تريستي. أول ما ركبت القطر لقيت صورة ضخمة بالأبيض والأسود لـ«فرانز كافكا» ومكتوب جنبها: «من هنا عبر اليهود»، فسألت نفسي: «أنا إيه اللي ركبني القطر دا؟!»، وافتكرت الغرض الرئيسي من الرحلة اللي كان إني أروح تريستي أزور مدرسة «بيرلتز» اللي كان بيدرس فيها «جيمس جويس»، وأقعد على القهاوي اللي كان بيقعد فيها مع «إيتالو زيفنو». لما وصلت تريستي كان الوقت اتأخر، فدورت على أوتيل أقعد فيه، ودخلت أول أوتيل، وسألني موظف الاستقبال: «يوغسلافي سابقًا؟»، فقلتلته: «لأ. أنا مصري»، فقاللي: «دا أسوأ من إنك تكون يوغسلافي سابقًا. تمنالك إقامة قصيرة، وكل ما كانت أقصر كل ما كان أفضل». شكرته على ذوقه، وبدت أشوف أغلب

سكان الأوتيل يتكلموا لغات سلافية، وبيتحركوا في أرجاء الأوتيل بحرية، فحطيت شنطتي وخرجت أتعشى.

كان معايا دليل للأماكن اللي كان بيقعد فيها «جويس» مع «زيفو» بخريطة، لكن فضلت أمشي وكل ما أروح مكان ألاقه مقفول، وفي الآخر وقفت شاب في العشرينيات لابس جاكيت ثقيل وسألته عن إذا فيه مطاعم مفتوحة، فرد عليّ بصوت عجوز فوق الستين ووصفلي مكان المطعم الوحيد اللي بيفضل مفتوح بعد ثمانية بالليل.

اتعشيت ورحت الأوتيل أنام، وقلت لموظف الاستقبال مساء الخير، فما ردش عليّ، وما عرفتش أنام من ضجيج اليوغسلافين سابقاً في الأوتيل اللي كانوا عاملين حفلة وفرحانين إنهم قدروا يهربوا من الحرب في يوغسلافيا، وفي الآخر قمت رحت أسألهم إذا كان ممكن أحتفل معاهم بانتهاء الحرب، فرحبوا بيّ، وسهرت سهرة جميلة ونمت بعدها.

في اليوم الثاني خرجت أتمشى في المدينة، وعلى البحر. كل الأماكن كانت بأسماء ألمانية زي ما كانت أيام ما كان عايش في المدينة «إيتالو زيفو» و«لويجي بيرانديلو»، وبديت أحس كأني مش في إيطاليا، وفضلت كل ما اتكلم مع شاب من الشباب اللي قاعدين عواطلية على القهاوي يقولي بصوت عجوز: «لو فضلت تريستي جزء من الإمبراطورية النمساوية، حالنا كان هيبقى أفضل كثير». وقصاد منظر الشباب اللي بيمثلوا أقلية في المدينة شفت العواجيز اللي بيمثلوا الأغلبية وهُمّ لابسين ملابس رياضية وييجروا على الشط، وفهمت إن المدينة بعنصريتها بتقضي على الفرصة اللي جايلها إنها ترجعلها الحياة من تاني.

بعد التمشية في المدينة رحت أزور متحف «إيتالو زيفو»، وكان قدامه صورة بطول المبنى لـ«زيفو»، وسألني أخصائية المتحف: «إنت مش من هنا؟»، فقلتلها: «مصري»، فقالتلي: «عربي؟!»، فقلتلها: «مصري وبتكلم عربي»، فقالتلي: «وإيه اللي يخلي مصري يهتم بيهودي زي زيفو، إنتو مش بتكرهوا اليهود؟»، فقلتلها: «زيفو مش يهودي، زيفو اعتنق المسيحية قبل ما يتجوز ليفيا فينزياني»، فقالتلي: «اللي يتولد يهودي يفضل يهودي!»، قلتلها: «الكلام دا لو صحيح ما كانش يبقى فيه مسيحية. حضرتك لسه عايشة في عصور قبل الميلاد؟».

طلعت من المتحف باسب وبالعن للست ولـ«زيفو» وللأدب، وقررت إني أبطل كتابة، ورحت الأوتيل خدت شنطتي وحاسبت على يومين رغم إني ما كملتش اليوم الثاني، وركبت القطر من تريستي راجع منها على روما، وفي الطريق وقفت في مدينة بادوفا أريح أعصابي بعد القرار الصعب اللي خدته، وتاني يوم الصبح خرجت في بادوفا ورحت أتمشى في ميدان الفواكه وفطرت هناك، وفجأة لقيت ولاد وبنات زي الورد بيدرسوا في الجامعة، وحسيت إن الحياة بتكشف ليّ عن نفسها وعن جاهلها، وافتكرت الجملة الشهيرة لـ«إيتالو زيفو» لما بطل كتابة وقال: «لقد أنقذتني الحياة من الكتابة»، واتفكرت أن أفضل قرار آخده إني أبطل كتابة، واتفكرت لو عشت في بادوفا بقية حياتي وما ارجعش لروما ودوشتها.

سنة ١٩٩٩ كنت في تورينو في إيطاليا في شهر مايو، ولما وصلت اكتشفت إني نسيت الباسبور في روما، وكان صعب أقنع أي أوتيل إنهم يقعدوني، لغاية ما لقيت أوتيل شعبي شبه بيوت الدعارة، وافق صاحبه إنه يقعدني بدون ورق. نزلت من الأوتيل أتمشى، واكتشفت إني فعلاً وسط حي دعارة، وبدأت البنات الأفريقيات اللي واقفين على أبواب البيوت يوروني مفاتنهم، فأقف أتفرج وبعدين أستغفر ربنا وأمشي. فضلت ماشي لغاية ما وصلت عند بيع جرايد، وكنت لابس تيشيرت مخطط بالأبيض والأزرق شبه تيشيرتات البحارة الفرنسية، فلقيت بيع الجرايد بيكلمني بالفرنساوي، فما رضيتش أكسفه واشترت «لوموند». فتحت الجورنال لقيت برنامج مهرجان «كان»، ولقيت إن فيلم «الآخر» ليوسف شاهين هيتعرض في نفس اليوم بالليل، فقررت أروح «كان». كانت أول مرة يجيلي الإحساس إنك بتسيب مصر بجسمك لكن روحك بتفضل فيها.

وصلت محطة القطر، ووقفت في طاوور التذاكر، وكان قدامي راجل أفريقي الملامح، ولما وصل لشباك التذاكر موظف الشباك سأله عن ورق الهوية، فطلعه ورق الإقامة في فرنسا، فقعد يحقق فيه، وبعدين قطعله التذكرة على مضض، وقعدت أفكر طب هيعمل إيه معايا وأنا معيش ورق، فوصلت على الشباك ولقيت موظف التذاكر بيكلمني بالفرنساوي، فقلته: «بوور كان»، وقطعلي التذكرة بدون مناقشة.

رحت مكتب عملة أغير ليرات لفرانكات، فطلبوا إثبات هوية، فقلتهم مفيش، فقالولي ما ينفعش، فقلتهم خلاص أروح مكتب تاني، فما رضيوش يمشوني زعلان وغيرولي عملة.

ركبت القطر اللي كان رايح نيس، ومنه كان المفروض أغير لـ«كان». في القطر لقيت قدامي ست طليانية سألتني أنا منين، فقلتها إني من مصر، فقالتلي إني فعلاً في شبه من رمسيس الثاني. بعد شوية القطر وقف على الحدود، وطلع طباط الحدود وبدأوا يبصوا على الجوازات، وأنا كملت كلام مع الست لغاية ما جم ناحيتنا، والست طلعت باسبورها وأنا قعدت أعمل إني بادور على الباسبور، فقالي: «طلياني، مش مهم!»، فقلت للست: «الحمد لله إنه عدى، لأنني معيش باسبور»، والست ارتبكت وحسيت إنها عاوزة تقوم تبلغ عني.

وصلت نيس، وحسيت إني تايه، آخذ قطر «كان» منين، لغاية ما لقيت شاب فرنساوي سألته، فأصر إنه يوصلني لغاية الرصيف.

أخيراً وصلت «كان»، ومشيت من المحطة للكوروازيت، وبالليل رحت على قصر المهرجان، ولقيت ناس واقفة مستنية طاوور عشان يدخلوا الفيلم، وأنا لا معايا كارنيه مهرجان ولا تذكرة، فقلت للأمن إني تبع شركة إنتاج الفيلم وجاي من إيطاليا فدخلوني، وفجأة لقيت قدامي كل فريق الفيلم، واتفرجت على الفيلم وخرجت.

بيت ورحت تاني يوم آخذ القطر من «كان» لنيس، ومن نيس لتورينو. وأنا على القطر ركبت جنب بنت فرنساوية عرفت إنها رايحة تقابل صاحبها في تورينو، فحكيتها مشكلة إني مواطن بدون باسبور، فاتعاطفت

معايًا، وبما إني ما اعرفش فرنساوي بدرجة كافية إني أعمل حوار طويل يدي انطباع إني فرنساوي، قبل ما نقرب على الحدود قالتلي إننا قربنا، فقلتلهها: «والحل؟»، قالتلي: «بوسني»، فبوستها بوسة أعتقد إنها كانت من أطول البوسات في حياتي، وكان لها طعم مختلف لدرجة إني اتمنيت إن القطر ما يوصلش، لكن للأسف القطر مشي في مساره الطبيعي ووقف على الحدود، وطلعوا ظباط الجوازات، وعدوا علينا، وفضلوا رايمين جاين ومكسوفين يكلمونا، لغاية ما خدوا نفسهم ومشيو، وسألت البنت الفرنسية إذا كانت بتحب صاحبها الإيطالي، فقالتلي: «آه»، وعزمتني أزورها في نيس وإداتني رقم تلفونها. وفي محطة تورينو نزلت من القطر وصاحبها خدها بالحضن وقعدت تبوس فيه، فيما عرفتش أسلم عليها وأخرجت ومشيت، وحمدت ربنا إنه نجاني من بوليس الحدود، ورجعت على الأوتيل من تاني.

وأنا في روما من ١٩ سنة وماشي باتفرج على المحلات اللي جنب «بياتزا نافونا» لقيت محل صغير بتاع قمصان، فدخلت أتفرج. لقيت القمصان تمها غالي جداً، فقلت للبت اللي بتشتغل في المحل: «هيّ القمصان غالية كدا ليه؟»، فقالتلي: «لأننا إحنا اللي بنفصلها، ولأنها معمولة من قطن مصري مية في المية». صاحب المحل بصلي وقالي إن زباين المحل ناس مشاهير زي «شون كونري» و«بول أوستر»، وهنا حسيت إن الراجل عرف يبيعلي. كان وقتها «بول أوستر» هوّ كاتب المفضل، وعجبتي فكرة إن نفس الخياط اللي بي فصل لـ«بول أوستر» هيفصلي، وفكرت إني على وشك الإفلاس، وافتكرت مرّة أبويا قالي: «لما تبقى مفلس البس أعلى حاجة، ولما تبقى الأمور ماشية ما بيفرقش إنت لابس إيه». وقررت أشتري قميص زي قمصان «بول أوستر». قلت للخياط صاحب المحل: «طب وبول أوستر بيختار أي قماشة؟»، فقالي: «بول أوستر بيلبس قمصان زرقة، لأن اللون الأزرق بيمشي معاه، أو على الأقل بيبقى فيها خط أزرق»، ووراني قماشتين، وحسيت إن القماشة ثقيلة، فقلتلته: «إنتو بتجيبوا القماش من مصر؟»، فقالي: «لا، بنجيب القطن من هناك وبنصنعه هنا، وبيأخذ معاملة خاصة عشان كدا بيبقى حلو وألوانه زاهية». بصيت على القماشتين، والقماشة الزرقة فكرتني بقمصان المدرسة في ثانوي، فاخترت القماشة البيضة اللي فيها خط أزرق، وخذ مقاساتي ورجعت بعدها بكذا يوم أستلم القميص. بعد كدا رجعت مصر، وما لقيت شغل، وسكنت مع واحد صاحبي ممثل، وفي يوم قالي إنه عاوز القميص عشان هيمثل بيه في مسرحية، وفي وسط العرض سبنا السكن عشان ما قدرناش ندفع الإيجار، فطلبت القميص فقالي لما تخلص المسرحية هيرجعه، وفضلت فترة بعدها ما أقابلوش، لغاية ما قابلته في يوم فقلتلته إني عاوز القميص، فقالي: «القميص المعفن دا اللي شبه قمصان الموظفين بتوع زمان! أنا رميته بعد ما خلص العرض». الحقيقة ما عرفتش يومها أرد أقوله إيه، بس النهارده افتكرت القميص، وقلت لنفسني لو ربنا كرمني هارجع روما تاني وأروح نفس المحل أفصل قميص تاني زيه، حتى لو رجعت مصر مفلس بعدها.

اتصلت بصديقي «جان باولو» عشان أقوله إني احتمال أزور روما، لأني باسيح من الحر في القاهرة، وإني بافكر أستعيد رحلة السفر لصقلية بالأتوبيس، فرحب بالفكرة جدًّا، وقال لي: «إنت عارف إن بيتك موجود في صقلية في أي وقت». افتكرت المرّات الكتيرة اللي فكرت أسافر فيها وما سافرتش، وافتكرت سفري الأول سنة ١٩٩٨.

من محطة تيبورتينا في روما كنت ركبت الباص اللي رايح كاتانيا، وكان الباص زحمة، وكنت استعدادت للرحلة اللي بتستمر من الليل للنهار بأني خدت كتاب «الرحلة إلى إكستلان» لـ«كارلوس كاستنيدا»، وجنبي كانت راكبة بنت صقلية خمرية اللون فيها كل حرارة الصقليات، لدرجة إني حسيت إني حران. لما الباص اتحرك نامت البنت وريحت راسها على كتفي، وأنا كملت قراية، وهيّ ما صحيتش إلا لما وصل الباص محطة ميناء كالابريا ودخل العبّارة اللي هتنقلنا لصقلية، وبدأ الركاب ينزلوا من الباص. سألت البنت إذا كانت تحب تشرب قهوة، فوافقت.

نزلنا من الباص للعبّارة، والبنت قدمت نفسها إن اسمها «كريستينا»، وإنها من كالابريا وبتدرس طب في روما، وطلعنا السلام اللي بتوصل للمطعم، وواحنا بنشرب القهوة اتبادلنا أرقام التلفون على وعد إننا نتقابل في روما.

في كاتانيا نزلت من الباص واتمشت في المدينة شوية لغاية ميعاد الباص اللي بيروح كالتينسيته، وأكلت جيلاقي وشربت قهوة.

لما وصلت مدينة كالتينسيته، أخذني «جان باولو» بعربيته لبيت أهله، وعرفني على أهله. أبو جان باولو الكفيف ذكرتني ملامحه بـ«خورخي لويس بورخيس»، نفس النظرة الغامضة، ونفس الرأس المرفوع في شموخ لفوق. كان الأب واقف في مطبعتة القديمة ماسك الحروف المعدنية وبيلمسها بإيده في حميمية، وكأنه بيتعرف على الحروف في هوس بورخيسي بالطبعة القديمة لما كان الكتاب بيتجمع حرف حرف وكلمة كلمة قبل ما يتطبع. سلمت على الأب اللي فرح بيّ جدًّا، وقلنا نطلع نسبقه وهوّ هيجصلنا على الغدا. طلعتنا المطبخ، وكانت أم جان باولو بتعجن المكرونة يدوي، وعرفها «جان باولو» عليّ، فقالت لي: «أهلاً بيك. إنت بما إنك دخلت البيت فإنت بقيت واحد من العيلة، زيك زي جان باولو وجيوفاني وباولينا»، وخذتني أتفرج على أوضة جيوفاني، وقالت لي إني ممكن أقعد فيها، لكن قلت لـ«جان باولو» إني أفضل أقعد في البيت الريفي، وقد كان، وانتقلنا بعد الغدا للبيت الريفي.

كان البيت الريفي متحاوط بأشجار البرتقال من كل ناحية، وبعد ما سهرنا وراي «جان باولو» مكان الأكل والقهوة، وقال لي إنه هيعدي عليّ بعد الشغل، وكان وقتها بيشتغل مدرس فن في مدرسة القرية، وقال لي إذا خرجت أتمشى وعجبتي حاجة من الحقول المجاورة أقطفها وأخذها وأقولهم إني ضيفه. ليلتها خرجت أتمشى وأتفرج على النجوم في السما، والبرتقال على الشجر، وفجأة غرقت في نوم عميق.

تاني يوم خرجت أتمشى بين الحقول، وكل ما أعدي على فلاح أقوله: «سلامو عليكو» أو «سالفني»، فيرد السلام ويعزمني أكل وأشرب حاجة عنده، ويوميها أكلت وشربت وكونت صداقات، لغاية ما «جان باولو» جه وخدني نتغدى في بيت أهله، وبعد الغدا نزلنا نتمشى، وكل شوية «جان باولو» يقولي تعالى نشرب حاجة عند فلان، وفضلنا ننتقل من بيت لبيت، وحسيت إننا مرحب بينا في كل مكان، وفي آخر النهار قالي «جان باولو» إن أمه حلفت إني أبيت في البيت، فبيت، وتاني يوم خرجت أتمشى في البلد، فوقفت قدام محل لبس، وحييت أشتري لبس منه، فالبياع بصلي باندهاش وقالي: «إنت منين؟»، فقلتله: «من مصر»، فقالي: «بتعمل إيه هنا؟»، فقلتله إني ضيف «جان باولو»، فمسك دليل التلفون واتصل بتلفون بيت جان باولو، وقلمهم إني عاوز أشتري حاجات، وسأل إذا كان مسموحي أدفع، فقالت له أم جان باولو إني ضيفهم ودي تبقى عيبة في حقهم، وفعلاً إداني البياع الحاجات اللي كنت عاوز أشتريها، وقالي: «حسابها وصل»، واتكرر الموقف في كل مكان رحته لغاية ما ظهر «جان باولو»، وبدأنا جولة الزيارات.

في نهاية الأسبوع دعا «جان باولو» عيلته وأصدقاءه للاحتفال بيّ في البيت الريفي، وكل عيلة جابت لحوم متبلة ومشروبات، وبدأ شوي اللحوم، واتجمعنا حوالين الأكل، وأكلنا وشربنا لساعات، وبالليل اتجمعت فرقة جان باولو الموسيقية بقيادة أبوه، وبدأ عزف الموسيقى الصقلية، وبدأ معاها رقص شعبي صقلي من كل الضيوف.

تبادلت الزيارات مع «جان باولو»، لغاية قرب ميعاد نزولي لمصر، ورحت أودع عيلة جان باولو، وكنا في الربيع، وكان الجو حار نسبياً، لكن كنت بدت أشيل معايا جاكيت احتياطي إذا الدنيا بردت. دخلنا المطبعة، وأبو جان باولو كان ييمسك الحروف المعدن ويقلب فيها، وسأل «جان باولو»: «معاك حد؟»، فقاله: «مفاجأة!»، وقربت منه، فمسك إيدي وحسس عليها، وبعدين ندهلي باسمي بعد ما اتعرف عليّ، وخدني بالحضن.

وقت ما كنا بناكل حسيت إني بردان، فلبست الجاكيت، وأم جان باولو علقت وقالت: «لكن الجو مش برد»، فقلتلهها: «لكني بردان». بعد الأكل قربت مني أم جان باولو وقالتلي: «إنت مش كويس، فيك حاجة مضايقاك. إنت زيك زي جان باولو، فقلي إيه اللي مضايقتك»، قلتلهها: «مفيش حاجة مضايقاني»، فقالتلي: «لما تلبس جاكيت والدنيا حر معناه إنك مش حاسس كويس، ودا معناه إنك متضايق»، فما عرفتش أرد أقول إيه، فقالتلي: «عموماً لو متضايق إنك مسافر مصر، فالبيت هنا واسع، وزى ما قتلتك إنت زيك زي جان باولو وجيوفاني وباولينا، ولو عاوز تقعد أنا أفضيلك أوضة جيوفاني واعتبرها أوضتك»، فشكرتها على لطفها.

قبل ما أسافر اجتمعت الفرقة الموسيقية وعملتلي حفلة وداع بالموسيقى الصقلية الحزينة. قبل ما أرجع مصر اتصلت بـ«جان باولو»، وقتله إني مسافر، فقالي إنه لازم يجي يودعني ويوصلني المطار، وسألني: «هتتزل مصر تعمل إيه، ما تخليك قاعد»، فقلتله: «هاقعد هنا أعمل إيه؟»، فقالي: «تشتغل أي حاجة، وتعيش معانا، وإذا كان على الأوراق أنا أساعدك فيها»، قلتله إني خلاص حجرت، فقالي إنه

هيكون في محطة أتوبيس تيورتينا الصبح.

تاني يوم لقيت «جان باولو» نازل من الأتوبيس الصبح، وبيقولي: «صديقي العظيم!»، وبيأخذني بالأحضان.

ركبنا الأتوبيس اللي رايح لـ«بيازالي فلامينيو»، ورحت للسواق أدفع تذكرتين على أساس أرد لـ«جان باولو» ولو جزء من حسن ضيافته ليّ، فاتدخل «جان باولو» وقال للسواق بضحكته الواسعة: «إحنا الصقليين ما بندفعش، مش كدا؟!»، فالسواق قاله: «أنا كمان صقلي وباشتغل زي الكلب عشان أعيش»، فقالة: «شفت إنت اخترت تشتغل زي الكلب، وأنا اخترت إني ما ابقاش كلب وأعيش حر، وعشان إحنا أحرار مش هندفع». ما اتدخلتش ودخلنا قعدنا، ولما سألت «جان باولو» قالي: «إنت بقالك سنة عيش في روما كل ما تركب أتوبيس بتدفع تذكرة؟»، فقلته: «آه»، فبصلي بصة استنكار.

وصلنا وسط البلد، وقررت أعزم «جان باولو» على الفطار. نزلنا في «بيازالي فلامينيو»، ومنه عدينا شارع «فيا لويزا دي سافويا» رايجين ميدان «بيازا ديل بوبلو» اللي بتتوسطه المسلة المصرية، وعيني كانت باصة ناحيتها، لدرجة إني ما بصيتش على كنيسة «سانتا ماريا ديل بوبلو» اللي كنت متعود أقف عندها. و«جان باولو» قالي: «هترجع مصر؟»، فقلته: «آه»، فقالي: «هتلاقي مسلة زي دي في مصر؟»، فقلته: «آه»، فمشينا ودخلنا كنيسة «سانتا ماريا ديل بوبلو»، وبصينا على أعمال «كارافجيو»، و«رفائيللو» في الكنيسة، ودي كانت اللحظة اللي حسيت فيها إني متضايق إني ماشي من روما. كانت روما بالنسبالي أكبر متحف مفتوح في العالم، ممكن تدخل كنيسة صغيرة بالصدفة فتكتشف فيها أعمال عظيمة من عصر النهضة.

قعدنا على قهوة في «فيا ديل كورسو»، وطلب «جان باولو» كرواسو وكافيه لاتييه، وطلبت زيه، ورحت أحاسب عند الخزنة، فقالي «جان باولو»: «بتعمل إيه؟»، فبصيتله، فبص للبارمان وقال: «القهوة هيعزمننا عليها البارستا». اتحض البارمان اللي حس إنه هيتورط في عزومة، فضحك «جان باولو» بضحكته الشرائية، وقاله وهوّ بيشاور عليّ: «اعذره أصله غريب، وفاكر إنه لازم يدفع عشان كل حاجة، لكن ما يعرفش إن الغريب ممكن ما يدفعش زيه زي الصقلي، ولآ إيه؟»، فابتسم البارمان ابتسامة غيظ وهوّ عارف إنه اتورط، وقال لـ«جان باولو»: «عندك حق».

واحنا قاعدين بناكل، «جان باولو» قالي بضحك: «مش قادر أصدق إنك عشت الوقت دا كله في روما وبتدفع تمن كل حاجة! مش قادر أصدق! كأنك ما اتعلمتش أي حاجة مني!». كان الكرواسو حلو فكلته بسرعة، فـ«جان باولو» حس إني عايز تاني فقالي: «لو عايز واحد تاني نطلب، إحنا كدا كدا مش دافعين حاجة».

وحسيت إني مش هاقدر أستحمل تصرفات «جان باولو» لغاية ما أسافر، لكن كملنا اليوم، و«جان باولو» بيعزمننا على الغدا عند مهندس يعرفه، والعشا عند صديق تاني، وعلى البيات عند صديقة ليه بتشتغل في شركة سياحة، وبيحاول يقنعي إني ما أنزلش مصر.

وفضل «جان باولو» معايا لغاية ما وصلني المطار، ولما وصلت عند الجوازات إديت لظابط الجوازات

الباسبور وورقة الإقامة، فرجعلي ورقة الإقامة، وقال: «إنت مش راجع تاني؟»، فقلته: «لأ، مش راجع»، فقال: «خليها معاك، لسه عندك إقامة سنة، وممكن تفكر ترجع في أي وقت»، قلته: «مش هارجع!»، فقال: «ممكن تحتاج ترجع تجدها»، فقلته: «مش هاجدها»، فقال: «وأنا ما أقدرش أسحبها منك وهي ما انتهت»، ورمهالي في أيدي فخذتها، ونزلت مصر، ورغم إني برضه عمري ما عرفت أنا باعمل إيه في مصر، لكن أكيد البديل الوحيد كان إني أنهي حياتي واقف قدام الفرن باعمل بيتزا في مطاعم روما، وكنت بدل ما أسيح من حر الصيف هاسيح من حر الفرن، وإن كان الواحد بادئ يفكر إن جايز حرارة أفران البيتزا في روما تكون أرحم من صيف القاهرة.

سنة ١٩٩٨ كنت ماشي في بيازا نافونا في روما، ولقيت راجل شكله متشرد وفارش على الأرض ويبيع منتجات يدوية من بلاد آسيا - هندي، إندونيسي، فلبيني، خشب على فضة - حسيته كأنه شخصية طالعة من رواية. سألته: «إنت منين؟»، فقالي: «من البرتغال»، ونطقه الإيطالي بلهجة برتغالي كان ليه موسيقى خاصة، فكرتني إني دائماً كنت باحب سجع اللغة البرتغالي في الأفلام البرازيلي. قتلته: «إنت على كدا بلديات فيرناندو بيسوا؟»، فقالي: «إنت تعرف بيسوا؟ دا شاعرنا العظيم... أنا هاديك أي حاجة من غير فلوس، عشان خاطر بيسوا». أخرجت أمد إيدي على حاجة، وبعدين قالي: «أنا قريرت الفارو دي كامبوس وأنا عندي عشرين سنة، ومن يومها قررت أحتفظ بالبرتغال في قلبي، وأسافر أي بلد تانية. في كل بلد كنت أشتغل وأعيش وأجمع منتجات يدوية، لغاية ما أزق وأسافر بلد تانية أبيع الحاجات اللي جمعتها من البلد اللي قبلها وأشتغل وأعيش فيها». وبعدين فتح ألبوم صور فيه صور مراتاته وعياله في كل بلد عاش فيها - اليابان، الصين، ألمانيا، إندونيسيا، إلخ. كان راجل غريب، أصر يديني هدية من النحت الخشبي من صنع الحرفيين ببالي في إندونيسيا، ولغاية النهارده كل ما أشوف الهدية دي أفكر الحكاية دي، وأفكر لو كان بس عندي شجاعة الراجل دا.

كنت في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، وكان ربنا كارمني، فكنت باروح أفطر في مطعم بيقدم فطار استيك لحمة وبيض وبقوليات مطبوخة وقهوة، وبيقدم معاه اللوس أنجلوس تايمز عشان الواحد يقرا الجورنال وهو بيحط. كان الفطار بتسعة دولار، وكان فيه واحد متشرد بينام جنب المطعم، والصبح يشيل البطانية عن وشه ويبدأ يسعى في الأرض. في يوم لقيته واقف فوق دماغه وقالي: «عاوز أفطر»، فمدت إيدي في جيبي بشكل تلقائي واديتة اتنين دولار، فبصلهم بقرف، وقالي بزعيق: «إنت بتفطر باتنين دولار؟»، فقلته: «لأ»، فقالي: «أنا عاوز أفطر زيك»، فخذت منه الاتنين دولار وقلته: «أقعد افطر زيي»، فقعد وفطر، وباين عليه إنه كان جعان فعلاً. بقيت كل ما أعدي عليه بيتسم، وما سألنيش على فلوس تاني، لغاية ما في يوم لقيته جاي يقعد معايا، فقلته: «معييش فلوس أعزمك»، فقالي: «أنا رُزقت، وأنا اللي عازمك على الفطار النهارده». ما اتكلمتش، بس سعاده إنه عازم حد في المطعم كانت ما تتوصفش.

كنت بادور على سكن في سان فرانسيسكو، وعشان الأقي سكن كان لازم يبقى فيه إنترنت، والمكان الوحيد اللي كان متاح فيه إنترنت مجاني كان المكتبة الوطنية في وسط البلد قدام السيتي هوول، فكنت أروح هناك أستنى في طابور طويل قبل ما يبجي عليّ الدور إني أقعد قدام جهاز من أجهزة الإنترنت المجاني، اللي

كانت مدة استخدامه ١٥ دقيقة، وبمجرد ما أخلص دوري أقف في الطابور من ثاني. كنت كل ما الأقي إعلان شقة تناسبني أكتب إيميل وأستنى الرد في المرّة الي بعدها.

كنت أروح المكتبة الصبح قبل ما تفتح وأقف في الطابور، وقتها كان بيدأ متشردين المدينة يتجمعوا من الحدائق والشوارع عشان يدخلوا المكتبة، زيمهم زي الملايكة: موجودين بس مش متشافين. أول ما باب المكتبة يفتح كانوا ينزلوا في طابور طويل شايلين مخلاتهم على ضهورهم لغاية ما يوصلوا للحّمّات ويقفوا طوابير عشان يستحموا، وبعدين يقفوا في طابور الإنترنت، منهم ناس كان لسه عندهم تواصل مع العالم الواقعي، وناس كانوا خلاص دخلوا عالم الخيال من أوسع أبوابه. كنت باعرفهم لأنني ساعات أنا كمان كنت باوصل لمرحلة أحس فيها إني ممكن أسيب كل حاجة وأروح أفرش في حته جنبهم وأعيش وخلص وأنسى أنا جاي منين ورايح فين، لكن في اللحظات الأخيرة قبل ما أستسلم كنت عادةً بالأقي سكن، لكن كل ما كنت أروح سكن الأقي متشردين قدامي، كأنهم بقوا جزء ما يتجزأش من حياتي.

فاكر إني كنت لقيت سكن في «جولدن جيت أفينو»، ودا شارع مليون متشردين، ومن الشباك كنت باشوف كل يوم بالليل شاب من المتشردين بيكنس الرصيف اللي فارش عليه. في الأول ما فهمتش هوّ ليه بيعمل كدا، وفكرته مجنون، لكن ما كانش ظاهر عليه أي علامة من علامات الجنون. بعد فترة قربت منه عشان أسأله بيعمل كدا ليه. حكالي إنه انتقل من نيويورك لأنه ما استحملش العيشة كمتشرد في برد نيويورك، لكن الجو في سان فرانسيسكو معتدل أغلب السنة، وبمجرد ما فرش على الرصيف حس إنه بقى بيته. سألني: «إنت تحب تعيش في بيت مش نضيف؟»، قتلته: «لأ»، فقالي: «دا بيتي، وعشان كدا باحب أنضفه كل ليلة قبل ما أنام».

٤

حصلت جريمة قتل في «جولدن جيت أفينو»، وبقي الشارع ملغم بالبوليس، فنقلت في شقة في منطقة ميشين دولوريس، الي هيّ تقاطع شارع ميشن مع شارع كنيسة دولوريس. كنت ساكن في الدور الأول والأخير في بيت صغير جدّا. بالليل وأنا مروح وآجي أطلع السلم كنت أسمع صوت مزيكاً قديمة. جاري كان عجوز متقاعد عايش مع الكلب بتاعه، وكان عنده هاجس إن اللي ساكن في الدور الأرضي بيدخن، وكان ينزل كل شوية يتخانق معاه، والساكن في الدور الأرضي يرد يقوله إن كل واحد حر في بيته ويشتمه. وأنا فضلت في حالي ومليش دعوة بالحوار دا، لغاية ما في يوم حصل إني صحيت على صوت ضرب نار بالليل، وطلعت أبص أشوف فيه إيه لقيت الساكن في الدور الأرضي بيبليغ البوليس بالتلفون عن اللي حصل، وكان هوّ شاف رقم العربية واستنى البوليس بييجي، وأنا نزلت أطمئن إن ما حصلوش حاجة، فحكالي اللي حصل، وإن دا غالبًا شغل بتوع مخدرات بيصفوا حسابهم مع بعض. قتلته: «لا ياشيخ!». وبعدين جت عربية البوليس وحكاهم الحكاية اللي حكاهالي وقاهم أوصاف اللي ضربوا نار.

يومها حسيت إنه إنسان جدع، وعزمته يشرب شاي، ولقيته بيحكلي عن إنه كان متشرد، وياخد ٨٠٠

دولار في الشهر إعانة بطالة من الحكومة، ولما دخل الشتاء ما استحملش البرد فقرر يأجر شقة، وجنب إعانة البطالة قرر يشتغل يوزع فلايرز ١٨ ساعة في الأسبوع عشان يدخل ٨٠٠ دولار كمان يعيش بيهم، بس ما كانش مبسوط بموضوع الشغل دا. وسألته عن المزيكا، وعرفت إنه مغرم بتجميع الأسطوانات القديمة، وحكالي إنه ساعات بيسمع أصوات وبيأخذ أدوية بس مفيش حاجة بتهديه زي إنه يسمع الأسطوانات القديمة. عزمي بعد كدا على شقته، وكانت ريحتها عاملة زي ريحة القبر، وشفتم كمية مهولة من الأسطوانات.

المهم قبل ما الشتاء يخلص لقيته بيقولي إنه بيدور على مخزن للأسطوانات يأجره، لأن هو مش مهم، بس الأسطوانات لازم يحافظ عليها، وإنه قرر يرجع الشارع تاني، فسألته ليه، فقالي: «لأني لما سبت الشارع فقدت حرיתי». واحترمته جدًّا، وعرضت عليه يسيب الأسطوانات عندي لغاية ما يلاقي مخزن، وعمل كدا فعلاً، ورجع بعد كذا أسبوع لما كان ظبط وضعه في الشارع، وكان شكله مبتسم وفرحان، ويومها حسيت أد إيه الحرية بتفرق فعلاً مع البني آدم.

ومن كتر ما الواحد قابل متشردين بعد كدا، بقى بيعس إنه ياما فيه متشردين بيعسوا، وياما فيه ناس ربنا إدهم كل حاجة وما بيعسوش.

سان فرانسيسكو، زي النيل كدا، بيقولوا لما تروحها وتمشي منها بتسيب قلبك فيها، وكل فترة بتبقى عاوز ترجع تدور عليه، وتبقى محظوظ لو لقيته. لو لقيته لإما تقعد معاه عشان ما تفضلش عايش في حته وقلبك في حته تانية، لإما تاخده معاك وإنت ماشي عشان ما تفضلش إنت عايش في حته وقلبك في حته تانية.

وأنا طالب عملت اتفاق مع صديق إيراني إني أركب معاه وأنا رايح الجامعة في سان فرانسيسكو، وأدفع جزء من حق البنزين، ودا كان بيوفر عليه إنه يدفع كارتة عبور «الجولدن جيت بريدج» من الإيست باي لسان فرانسيسكو. الحقيقة إن الموضوع كان مريح بالنسبالي جدًّا، مش محتاج أمشي لغاية الموقف، ولا أمشي للمترو، ولا من محطة المترو للجامعة. صديقي كانت أصوله من قبائل البختيار، والغرامة اللي كان عليّ إني أدفعها إني كان كل يوم لازم أسمع أغاني «استاد على اكبر شكارچی» اللي جمع أغاني من تراث قبائل البختيار واللور وسجلها بصوته. كان بالنسبالي دا بمثابة إعجاز علمي. صحيح ما كنتش فاهم ولا كلمة، لكن النغمات اللي جاية من الكاسيت بآلات المزمار والناي والتار والكمنجة والستور والعود وصوت «استاد شكارچی» والكورس من وراه، كانت بتحسني كأني انتقلت من شوارع سان فرانسيسكو لهضاب جبال إيران. النهارده لقيت صدى النغمات في راسي من غير ما أسمعها بوداني، ففضلت أدور لغاية ما لقيت الأغاني، وحسيت أد إيه إن الحاجات اللي بتعلق في الروح ما بتسيهاش مهما طال غيابها.

وأنا في سان فرانسيسكو سكنت في أوضة في شقة مع مجموعة من المهاجرين لمدة شهرين. الفكرة إن معظمهم كانوا بيعجوا على النوم، وساعات كانوا يجيبولي أكل معاهم من المطاعم اللي بيشتغلوا فيها، وناكل سوا. وكان فيه واحد منهم بيشتغل في توصيل الطلبات في مطعم ١٥ ساعة في اليوم، ويحب يحكي عن تجاربه مع الزباين، وكان بيعرض يوصلني معاه لو رايح حته وهو نازل الصبح. وفي نهاية الأسبوع كنت باروح معاه أحيانًا أتفرج على سان فرانسيسكو المدينة الوحيدة اللي حاسس إنها حبتني زي ما حبيتها، وكان كل ما نطلع مطلع أو ننزل منزل أحس كأني جوه فيلم «فيرييجو» لـ«هيتشكوك»: نفس الرهبة، ونفس المخاوف، ونفس الجمال. كان معانا مهاجر من المكسيك اسمه «ألفونسو»، وكان مشهور إنه أحسن واحد بيعمل عجينة بيتزا في المدينة، بس كان بمزاجه، وممكن يقرر فجأة إنه ما يشتغلش ويقعد في البيت ويلبس بدل زرقا بقمصان حمرا، وينزل يتمشى في المدينة ويقابل البنات اللي بيعجبهم في الحدايق وهو ماسك وردة في يده زي الحبيبة في الأفلام. كان ساعات يتجلى لما يكون سعيد في مقابلته، ويعملنا أفضل بيتزا في المدينة، وساعات كانت المقابلة تحبط فيرجع شايل الوردة ويقطعها، ويدخل أوضته ويقفل الباب على نفسه ويكسر

حاجات في الأوضة ويرمي حاجات من الشباك على الجنيئة الخلفية للمهاجر المكسيكي العجوز في الدور الأرضي، وكان الراحل الصباح يلم الحاجة ويطلع وكلبه وراه يرجع الحاجة لصاحبها. «ألفونسو» كان ياكل وجبة واحدة ثلاث مرات في اليوم - كورن فليكس باللبن - لأنها أرخص حاجة وما بتضيعش وقت في عمالها، وأنا انتحلت الجزء دا من شخصيته، وبقيت باكل كورن فليكس ثلاث مرات في اليوم، لغاية ما دخل رمضان. في الأول كنت بافطر كورن فليكس باللبن، وأتسحر كورن فليكس، لغاية ما حسيت فجأة بالحنين، وكنت معدي على محل يماني لقيته بيبيع علب فول وعيش عربي، فاشترت علب فول، ووقت السحور بقيت أغسل الفول وأجهزه، ولأنهم كانوا ببيجوا من الشغل متأخر فكانوا بيقتعدوا ياكلوا معايا، وأد إيه كنت بابقى فرحان و«ألفونسو» ياكل الفول وفرحان زي اللي عمره ما أكل فول في حياته.

٤

وأنا ساكن في أوكلاند، كاليفورنيا، كلمني صديق ليّ وقالي نزل نروح المينا نتفرج على الألعاب النارية في رأس السنة، وقالي إن من مينا أوكلاند نقدر نشوف السما فوق سان فرانسيسكو وهي متغطية بالألعاب النار، وأنا صدقته. وكلمني قبل ما يوصل قالي إنه فاضله خمس دقائق ولازم أنزل.

الحته اللي كنت ساكن فيها كانوا بيحذروا الناس إنهم يمشوا فيها بعد ثمانية بالليل، وكان دايمًا فيه حكايات عن حد كان ماشي بالليل فاثبتت وخذوا منه كل حاجة وقلعوه هدموه وسابوه، لكن أنا ما شففتش حاجة، عشان كنت ما بانزلش بعد ثمانية بالليل، لكن يومها نزلت.

وقفت قدام المبنى، وفجأة الكهرباء قطعت، وعشان كانت البوابة إلكترونية كانت بتشتغل بلوحة بادخل فيها كود فتفتح، لكن من غير كهربا ما اتفتحتش، ورغم إني عارف المعلومة دي جربت واتأكدت إني محبوس بره، وقلت لنفسني: معقولة يعني الخمس دقائق اللي أقرر أفهم بره تقوم الكهرباء اللي عمرها ما بتقطع في أمريكا تقطع فيهم.

المهم قلت أدخن سيجارة قبل ما صديقي يوصل عشان مش هيخليني أدخن في عربيته، وطلعت علبة السجائر، وفجأة لقيت واحد طالعلي من آخر الشارع وماسك مسدس وقالي: «أنا نازل أقتل حد النهارده!»، وما فكرتش أرجع ناحية البوابة لأنني عارف إنها مش هتفتح، وقتلته: «تدخن سيجارة؟»، واديتله سيجارة وولعتها، وسألته: «ليه عاوز تقتل حد؟».

قالي إنه مش لاقى شغل، ومش لاقى فلوس يعيش، وعشان كذا قرر إنه يقتل أول حد يقابله. قتله: «تفتكر دا هيحللك مشكلتك ولا هيقلدها زيادة؟»، فقالي: «مش فاهم»، فشرحتله: «مثلاً لو إنت قتلت أول واحد قابلك وما طلعتش معاه فلوس زيه زيك، هتبقى مشكلتك ما اتحلش»، فقالي: «آه، عندك حق، بس أنا مش فارق معايا، أنا عاوز أقتل حد وخلاص!»، فقتلته: «دي تبقى خطوة غلط، لأن كمان مشكلة المدن الحديثة إنها متراقبة بالأقمار الصناعية، أول ما يبقى فيه ضرب نار هيحددوا مكان ضرب النار ويعملوا زووم إن، فيلاقوك فيفضلوا متابعينك وفي خلال دقائق هتلاقي البوليس محاصررك ويقبض عليك»، فقالي:

«أنا ما تفرقش معايا. أنا نازل أقتل حد وخلاص!»، قتلته: «إزاي ما تفرقش معاك؟! النهارده بداية سنة جديدة، وكل سنة بتبدأ ببيجي معاها أمل جديد إنها ممكن تبقى أحسن من السنة اللي قبلها، وإنت بدل ما تبدأها بالأمل إنك تلاقي شغل وتغير حياتك عاوز تنهيها؟»، فقالي: «عندك حق».

وقتها كنا خلصنا تدخين السيجارة، وصديقي كان وصل، فاتميت لصديقي العابر سنة جديدة، وقلته: «عام جديد سعيد عليك يا صديقي»، فقالي: «عام جديد سعيد». وفتحت باب العريية وصديقي سألني: «مين دا؟»، فقلته: «مفيش، دا كان نازل يقتل حد فوقفنا ندخن سيجارة سوا». ورحنا شفنا الألعاب النارية، وفضلت المدينة في بالي منورة بالألعاب النارية حتى بدون رأس السنة.

كان حلم حياتي وأنا في ثانوي إني أشتري راديو موجات قصيرة. الراديو «الباناسونيك» اللي كان عندنا في البيت ومتغلف بجلد بُني ما كانش بييجب محطات غير محطة صوت العرب وإذاعة القرآن الكريم، فبقيت أنزل محلات الأجهزة الكهربائية أسأل على راديو موجات قصيرة، لغاية ما لقيت راديو «سوني»، والبياع قالي إنه بييجب أكثر من ميت محطة، وقعدت أحوش سنة لغاية ما حققت حلمي واشترت الراديو، وبقيت أقعد لوحدي بالليل أدور على المحطات البعيدة: راديو سويسرا، راديو كندا، إذاعة موسكو... وأغلب المحطات دي كانت بالعربي، وكان فيها برامج للمراسلة ومسابقات، وفاكر إني كسبت ساعة «سواتش» من إذاعة سويسرا، وكسبت جائزة «برفيوم» من إذاعة مونتي كارلو، وصلي وبعد ما دفعت الضرائب عليه فتحت الطرد لقيته مكسور، و«ساموفار» من إذاعة موسكو اللي قرفوني بعد كذا بصور «جورباتشوف»، وراديو أمريكا بعثلي كتب وشرايط كاسيت لتعلم الإنجليزية، وراديو دويتشه فيلا كان بيعتلي مجلة شهرية، وكنت أروح البيت ألقى وصل بطرد ليّ في البوسطة، أروح أستلمه فيقابلني عم نحاس اللي كان شغال في البوسطة، ويقول جالك طرد فيه كذا أو جواب مسجل فيه كذا.

عم نحاس كان بيتنمي لعهد منقرض، يلبس البدلة اللي شبه البدل الميري بكباسينها النحاس، وطربوشه الأحمر، وعامل زي البوسطجي في فيلم «البوسطجي»، يفتح جواباتي اللي كان دخل فيها مع الوقت اهتمامي بمجلات المراسلة، وبقت تحبلي جوابات من بنات من أنحاء العالم فيها صورهم، وعم نحاس يقولي: «يا بختك، البنت الفرنسية بعثتلك جواب». وكنت أبقى متضايق بس ما عرفتش أواجهه لأنني خفت يحجز الجوابات وما يسلمها ليش.

فضل الموضوع مستمر، لغاية ما في يوم وأنا في عملية البحث عن إذاعات جديدة لقيت إذاعة كوبا، وكان الصوت بيروح وييجي، بس في الآخر قدرت أسمع برنامج عن مدرسة السينما اللي أسسها «جابريل جارثيا ماركيز»، وقمت جبت الورقة والقلم وكتبت جواب مديح في «فيديل كاسترو» وإعجابي بالتجربة الكوبية، وإن أمنية حياتي إني أروح أدرس سينما مع «ماركيز»، وبعته للإذاعة، ونسيت الموضوع، لغاية ما في يوم لقيت جايلي طلب استدعاء في مباحث أمن الدولة في المستعمرة في المحلة، ورحت هناك، وطلبت أقابل الظابط اللي قابلني وهوّ ماسك جواب في إيده جايلي، وقالي إنهم راصدين كل تحركاتي، وسألني إيه علاقتي بكوبا، وإذا كنت شيوعي، فقلتلته إني باحب السينما، وقالي أنسى موضوع كوبا وهوّ مش هيعملي حاجة عشان أنا لسه صغير، وطلعت من المكتب ناسي موضوع كوبا، بس فضلت من يومئذ شاكك إن عم نحاس هوّ اللي قالهم.

مايو ٢٠١٧. راكب أوبر من مطار لوس أنجلوس لوسط البلد. السواق في أواخر الستينيات. بدأنا نتكلم، فسألني عن شغلي، فقلتله إني باشتغل في الأفلام المستقلة وكدا، فقلالي: «آه، الأفلام دي اللي ما بتأكلش عيش»، فقلتله: «آه»، قلالي: «لأ. ما تشتغلش حاجة ما تاخذش مقابل قصاها». وبعدين سكت شوية وقلالي: «عاوز تكسب اعمل أفلام عن الناس. لو عملت فيلم مثلاً عن عيلة فيها ابن مدمن كوكايين وإزاي بيتعاملوا معاه، الفيلم دا هيكسر الدنيا هنا. هُم هيعملوا بيع الماريجوانا قانوني السنة اللي جاية، بس دي أكبر غلطة لأن كل اللي النهارده مدمنين كوكايين بدأوا بالماريجوانا». وسكت تاني وقلالي: «ابني مدمن كوكايين، وعایش معايا، وساعات بيختفي بالتلات والأربع أيام وبابقى خايف ما يرجعش»، وبصيت من المرآة فشف عيني مدمعة، وبصيت للشارع فعرفت إني في لوس أنجلوس.

لما وصلت مطار لوس أنجلوس سنة ٢٠٠٣، وقفوني في المطار وأخذوني في أوضة تابعة للأمن القومي، وحققوا مع الناس كلها وسابوني للآخر، وحتى لما بقيت لوحدي محدش كان عاوز يحقق معايا، فطلعت كتاب أقرأ فيه لغاية ما يفضولي، لكن الموضوع طول، فقمتم أتمشى في الأوضة بعد ما رجليّ تعبتني من القعدة، فواحد من الضباط في المكتب قلالي إني ممنوع أقف. بعد شوية طلبت إني أروح الحمام، فدخل ظابط معايا ووقف ورايا، فقلتله إني مش هاعرف أتعامل وحد واقف ورايا، فقلالي: «إحنا مش عاوزين حد يتحرر هنا»، فضغطت على نفسي لغاية ما خلصت وخرجت بره أقعدت تاني.

أخيراً ندهولي في مكتب التحقيقات. المحقق كان أمريكي لاتيني، وبدأ بالأسئلة العادية: الاسم، والسن، وخلافه، فقلتله إنها مكتوبة في الباسبور، فقلالي إن دي مش إجابة وإني لازم أجاب، فقلتله اسمي، فما عرفش يكتبه، فقلتله: «ما أنا عشان كدا قتلتك تبص في الباسبور»، فمسك الباسبور من الشال لليمين، وبقي مش عارفه مسكة، فقلتله أنا ممكن أساعده، ومديت إيدي عشان آخذ الباسبور أفتحوله على صفحة البيانات، فقلالي: «حطة إيدك على المكتب معناها التدخل في شغل ظابط فيدرالي، وممكن أرميك في السجن»، فقلت الطيب أحسن، وسبته محتاس لغاية ما لقي صفحة البيانات. بدأ يسألني عن الأنشطة الإرهابية اللي ممكن أكون مارستها في حياتي، فقلتله إني مليش أي أنشطة إرهابية، وحسيت إني مستفز، فسألته إذا كانوا بيعاملوا الناس كلها بالطريقة دي ولأ أنا بس عشان عربي مسلم، فقلالي: «إنت بس عشان عربي مسلم يا سيدي». وبعدين خرجني وقلالي إن وأنا مسافر تاني أعدي عليهم عشان هيقققوا معايا تاني، وفي حالة تناقض أقوالي مع الأقوال المثبتة في المحضر ممكن يتم توجيه تهمة تضليل العدالة ليّ، وعشان كدا لازم أفكر كل كلمة قلتها كويس. ورحت أستلم شنتي ففتشوها حطة حطة وهُم لابسين جواناتيات، وبعدين

سلموهالي.

وأنا مسافر راجع مصر رحى المطار بدرى، وعديت على الأمن القومى بنفسى، وكانت أوضة المسافرىن مختلفة عن أوضة اللى بيوصلوا، والظابط طلب منى الباسبور، فاديتوهله، وقعد يعمل بحث على تحركاتى، وقالى إن الموضوع بيطول شوية، فقلته: «طب أنا هاطلع أدخن وأجيلك عشان عندي سفر أربعة وعشرين ساعة ومش هاعرف أدخن»، فسابنى أخرج، ورجعته تانى لقيته لسه ما خلصش، فاستنيت لغاية ما أخذت الباسبور.

أنا فكرت الموضوع خلص على كدا، لكن وأنا واقف فى الطابور عشان أدخل صالة المغادرة، لقيت موظف لاتينى بيعدي فى الطابور وطلعنى من وسط الناس، قالى أروح أقف فى طابور تانى. رحى الطابور التانى، ووقفت لغاية ما وصلت لما كينة التفيتش، فالظابط قالى: «أنا بانصحك تعلق جزمك»، فسألته: «إنت بتنصحنى عشان جزمى ممكن يبقى فيها قطع معدنية؟!»، فقالى: «آه»، فقلته: «أنا جزمى إيطالى جلد طبيعى ١٠٠٪ خالية من القطع المعدنية»، فقالى بلهجة اللى حافظ مش فاهم: «أنا أنصحك تعلق الجزمة»، فسألته: «إنت بتنصحنى ولأ بتأمرنى؟»، فقالى: «لأ بانصحك»، فقلته: «خلاص، أنا عارف جزمى ومش هاخذ بنصيحتك»، لقيته انفعلى وقالى: «أنا كموظف بوليس فيدرالى من حقى أضربك بالرصاص»، فقلته: «طب مش تقول كدا! كدا اسمها بتأمرنى، ولو كنت قلت كدا من الأول كنت قلعت».

عديت من ما كينة الكشف، وفكرت الموضوع انتهى على كدا، لكن بمجرد ما عديت لقيت اتنين ظباط طلوعى من على جنب وخدونى على أوضة على جنب ولبسوا الجوانتيات، وكانت دى أول مرّة يتعملى فيها تفيتش ذاتى، ومن يومها قررت لوس أنجلوس دى مش هاروحها تانى إلا لو هيدونى أوسكار.

٣

بعد ما خلصت إجراءات الدخول كان فيه معلومة ما كنتش أعرفها، وهى إن فى أمريكا وثيقة الفيزا - وهى الورقة اللى بناء عليها بتطلع الفيزا للمسافرىن لأسباب أكاديمية زى وقتها - لها أهمية كبيرة، ورغم إنهم قالولى إنى أحفظ بيها متدبسة فى الباسبور، لكن لما حققوا معاى فى المطار لما وصلت، الظابط فك دبوس وفصلها عن الباسبور، وبعد ما خرجت من المطار ومن انفعالى رميت الوثيقة فى أول صفيحة زبالة. نزلت فى الأوتيل اللى كنت حاجز فيه فى ويست وود بولفارد. بعد كدا حاولت ألاقى شقة أسكن فيها، وكل ما أروح أتفرج على شقة يقولولى إنى محتاج كارت ضمان اجتماعى عشان يأجرولى. رحى مكتب الضمان الاجتماعى قالولى ما ينفعش تطلع رقم ضمان اجتماعى من غير وثيقة الفيزا، فقلتهم إنها ضاعت، فقالولى كلم مكتب الهجرة طلع بدل فاقد. رحى الأوتيل، كلمت مكتب الهجرة فقالولى إنهم ما ينفعش يطلعولى وثيقة فيزا بديلة، وإن الجهة اللى طلعتها هى اللى المفروض تطلعها، وزعقتلى الموظفة فى التلفون وقالتلى إنى كدا مقيم بشكل غير قانونى، وأنا ما باحبش حد يزعقتلى عموماً، فخرجت من الأوتيل، وفضلت أتمشى لغاية ما عديت قدام قسم بوليس، ودخلت القسم سألت على الظابط الموجود، فولاد الحلال دلونى، فدخلته

حكيتله الحكاية من الألف للياء، وقتله إن موظفة الهجرة قالتلي إني مقيم بشكل مش قانوني، فلو فيه حاجة غلط يقبض عليّ ويرحلني، فطلبلي حاجة أشربها، وقاللي: «هدي نفسك»، وبعدين قاللي: «وإنت تفتكر يعني إن لو معكش ورق خالص أنا هاقربلك بدون سبب؟! طول ما إنت ماشي في حالك وما بتعملش حاجة غلط محدش له دعوة بيبك». فجأة حسيت إني اتحررت من القلق نسبياً، لكن زيادة في الاطمئنان سألته: «يعني أقدر أسافر عادي جوه أمريكا وأروح مكان ما أنا عاوز؟»، فقاللي: «تقدر تعمل الي إنت عاوزه. إنت حر كطائر». وخرجت من القسم والجملة بترن في وداني، وسألت نفسي: ليه مش كل الناس الي في العالم لطيفة زي الظابط دا. وفضلت الجملة ترن في وداني، لغاية ما حسيت إن طلعي جناحات وبقيت طائر فوق المدينة، ومن يومها بقيت شايف الدنيا بعين طائر.

٤

أول مرّة أختبر مفهوم «شركاء الجريمة» الي بيستخدمه الأمريكيان للتعبير عن الصداقة الحميمة ساعات والحب ساعات تانية، هيّ لما وصلت لوس أنجلوس ومحدش رضي يأجرلي مكان أسكن فيه من غير ما يكون عندي رقم ضمان اجتماعي، واضطريت أقعد في فندق، لغاية ما لقيت إعلان على شجرة في الجامعة: «مطلوب شريك في الجريمة». اتصلت بالرقم، رد عليّ صوت ناعم، قتلها إني بادور على سكن، فقالتلي إنها كانت تفضل واحدة تسكن معاها. حكيتلها ظروفني، صعبت عليها، جات الأوتيل بعربيتها، وساعدتني إني أنقل شنطتي العربية، وخذتني على الشقة. لأول مرّة لما شفتها اتخضيت: كانت بنت ما تمتش عشرين سنة، بتلبس فستان صيفي بيدل على لياقة بدنية. عرفت إن اسمها «أوشا»، وحكيتلي إن أبوها مات في حرب فيتنام، وإنها عايشة على معاش المحاربين القدامى الي ساهبوها. صعبت عليّ زي ما صعبت عليها. وفجأة بقالي حد في المدينة، ناكل سواء، ونروح نتمشى على البحر سواء، أو نطلع الجبل سواء، ونفضل قاعدين نتكلم في البلكونة لغاية الصبح قبل ما نصحى نروح الجامعة. تجربة «العيش المشترك» دي كانت من أهم التجارب في حياتي، لكن دا ما يمنعش إني كنت خايف أغلط، لأن «أوشا» كانت أقل من ٢١ سنة، ولو حصلت مشكلة معاها هاروح فيها، وكنت مستني اللحظة الي أخلص فيها الأوراق وأنقل شقة تانية، وهيّ كانت جدعة معايا، وساعدتني إني أخلص ورقي، وراحت مشاوير كتير لغاية ما طلعت كارت الضمان الاجتماعي وبقى ممكن أأجر سكن.

كنا ساكنين في شقة أوضة ببلكونة، فيها سرير كبير وكنبه، في مجمع سكني أمريكي في كولفر سيتي، من المجمعات الي فيها حمام سباحة وملاعب تنس، وهيّ كانت بتعرف تستمتع بكل لحظة، وتلعب تنس وتنزل حمام السباحة، وما أنكرش سعادتي وهيّ راجعة من السباحة بالمايوه، أو خارجه من الحمام بالفوطة حوالين وسطها، أو واقفة بالساعة تحط ميك آب.

لما جاني رقم الضمان الاجتماعي مشيت، نقلت شقة ليها بلكونة برضه، وفضلت «أوشا» تكلمني كل شوية عشان نخرج سواء، أو نتمشى على البحر سواء، أو تقعد معايا في البلكونة ونقعد نحكي سوا لغاية ما الوقت

يتأخر وتمشي، لغاية ما في يوم جاني اتصال من «أوشا» بتعزمني فيه على عيد ميلادها، وقالتلي إني هاكون ضيف الشرف، الراجل الوحيد في الحفلة، وإن الباقيين كلهم هيكونوا بنات زميلها في الجامعة... ما كانش موضوع عزومتي بيخلو من شبهة استغلال، لما عدت «أوشا» عليّ بدري ورحنا السوبر ماركت، وجابت عربية ملتها بكل أنواع المُسكرات، ولما رحنا نحاسب وطلب البياع بطاقتها عشان يتأكد إنها عدت الواحد وعشرين سنة، وهنا «أوشا» قالتلي أطلع بطاقتي. كان نوع من الاستغلال المسموح بيه بين شركاء سابقين في الجريمة، قصدي يعني في السكن.

بعدها لقيتني في الجنة، بنات كلهم حلوين، في العشرين، لابسين فساتين سهرة، ويحتفلوا ويبغونوا ويرقصوا، وكل شوية واحدة منهم تطلب ترقص معايا.

بدت أقعد على جنب، وأحاول أبعد عن الشر، لكن كل شوية تيجي واحدة تخرجني من حالة الوحدة وتطلب مني أرقص معاها. في الآخر بدت أترنح من التعب، فخرجت البلكونة الي كنت عارفها كويس، ووقفت أشم هوا، لكن فجأة حسيت إني مش قادر أفف، فقعدت على الكنبه ولقيتني باسقط بضهري على الكنبه وقفلت عيني.

فقدت الوعي لمدة دقائق والملايكة قعدوا يلفوا حواليّ ويزفوني، وعرفت إني باودع.

فجأة ظهرت بنت من البنات الي كانوا في الحفلة، وأصرت إنها تقومني، وتقولي ما أنا مش، فأنا أقاوم إنها تقعدني، فقعدت جنبي وبدأت تسند ضهري وتحاول تفوقني وتقولي أنكلم، فأقولها إني ما عنديش حاجة أقولها، فتقولي أقول أي حاجة.

البنات مشيوا، وفضلت أنا و«أوشا» والبنت، والبنت الي ما اعرفهاش قالت لـ«أوشا» تنام، وإنها هتفضل قاعدة معايا. وشوية ورجّعت في البلكونة، وحسيت بالذنب، فقالتلي إن دا عادي، وقامت جابت عدة المسح ومسحت البلكونة، وجابت حلة من المطبخ وقالتلي أرجع تاني لو عايز، فرجّعت، وبقت تكب الحلة وتغسلها وترجلي، وفضلت جنبي لغاية ما بدت أفوق، وبدت أقول إني بقيت كويس وعاوز أروّح، فقالتلي إن ما ينفعش أروّح. ولما اتأكدت إني بقيت كويس جابت غطا غطتني، وخذت راسي حطيتها على رجلها وقعدت تلعب في شعري لغاية ما نمت. وفُقت الصبح أول ما الشمس طلعت لقيتني نايم على حجرها، وهي ساندة راسها على الحيطه، وحست بيّ أول ما فُقت، وسألتني إذا كنت جعان، وخرجنا اتمشينا على رجلينا لغاية ما وصلنا مطعم، وقعدنا فطرنا وشربنا قهوة، وعرفت إن اسمها «جيسكا»، وإنها من دينفر في ولاية كولورادو، بس بتدرس إعلام في جامعة نيويورك، وبتقضي فترة تدريب في لوس أنجلوس تايمز، وإنها بعد ما تخلص هترجع دينفر تقضي أجازة الصيف هناك.

يوميها رجعنا، خدت عربيتها ووصلتني السكن، وعزمتها تشرب قهوة تانية، فوافقت، وبقت فيه صداقة ما بينا بسبب إحساسي إنها أنقذتني. وبكدا بقى عندي صديقتين في المدينة، عرفت منهم معنى الصداقة الي ما كنتش أعرفه في حياتي قبلها.

كان لي صديق لبناني اسمه فادي، صديقه ساكنة في سان فرانسيسكو، وكان يسافر لها مرّة أو مرّتين في الأسبوع، ويقول إنه هياخذني معاه، ونركب العربية بتاعته بالليل ونوصل الصبح نقضي اليوم ونبيت في سان فرانسيسكو ونمشي ثاني يوم. كان واحنا في الطريق بيشتغل موسيقى «إيريك كليبتون» بصوت عالي عشان يغطي على صوت عجل العربيات النقل، ويفتح على أقصى سرعة، وكان كل ما نقرب على عربية نقل يحصل اختلال في المنطقة اللي في النص، ونحس إن العربية النقل بتسحبنا عشان نخبط فيها، فكنت باقفل عينيّ وأنام عشان ما اشوفش المهازل دي. في ليلة البنزين قرب يخلص، وما بقاش فادي عارف هيكفي ينزلنا من الهاي واي ولّا لأ، وفعلاً خالص بالظبط على منزل الهاي واي، ونزلت العربية بقانون الجاذبية، ولقينا نفسنا في حطة مقطوعة، وفضلنا واقفين كثير وفادي هيعيط عشان صاحبه اللي مستتياه مش هيوصلها في الميعاد، وفجأة ظهرت عربية ربع نقل متهالكة من بعيد سايقها واحد مكسيكي. وقفلنا، وسأل فيه إيه، ففادي كلمه بالإسباني لأنه كان يعرف شوية إسباني، فجاب المكسيكي جركن البنزين وبدأ ينقل بنزين من الجركن لعربيتنا. فادي قاله: «إنت فيك حاجة؟ محدش بيعمل كدا». المكسيكي قاله إن ثاني يوم الصبح المفروض يخلص القسم عشان يبقى مواطن أمريكي، لكنه ما بيعرفش يتكلم إنجليزي، ومش عارف يقول القسم إزاي، وفجأة فادي نسي صاحبه ووقف يحفظ المكسيكي القسم بالإنجليزي، ولما جه يمشي حاول يديله حق البنزين فرفض. وقلت لفادي بعد ما مشينا: «نسيت صاحبتك يعني!»، فقالي: «ولو، الزلّة محتاجني أكثر من رفيقتي»، فعرفت أد إيه فادي إنسان، وعشان كدا ربنا بيوقفله ولاد الحلال اللي زي وزي المكسيكي اللي وقفلنا وأنقذنا.

٦

نقلت سكن، وبقي عندي جار باكستاني قرب سنه على الستين سنة، نحيل وبدقن صغيرة وبيلبس بدلة زي البدل الصيفي اللي شبه بدل الموظفين عندنا زمان، وكل شوية يوقفني ويدعيلي ربنا يصلح حالي، ويهز راسه يمين وشمال وهو بيتكلم، وكنت ممتن لدعواته الطيبة، لغاية ما في يوم لقيت الباب بيخبط وفتحت فلقيت ناس لابسين جلابيب قصيرة تحتها بناطيل وبدقون واقفين وبيستأذوني إنهم يدخلوا عشان ما ينفعش يتكلموا معايا على الباب، فأذنتلهم، ودخلوا وقالولي إنهم عرفوا إني مسلم بس ما بيشوفونيش في مسجد الملك فهد، فجم يدعوني إني أروح الجامع، فسألتهم: «ليه أنا؟»، فعرفت إنهم من جماعة التبليغ والدعوة، وقالولي إن مهمتهم الأساسية دعوة غير المسلمين، لكن لأن المسلمين مستضعفين فهم بيدعوا المسلمين، على الأقل عشان المسلمين يستقوا ببعض ويقدروا يدعوا الكفار بعد كدا، لغاية ما يقدروا يرفعوا راية الإسلام في بلاد الكفار. أنا لأنني ما بافهمش في المسائل الدينية شكرتهم وقتلهم إني مش شايف إني مستضعف ومش عاوز أستقوى على حد ولا حد يستقوى عليّ.

بعدها بقيت كل ما أقابل جاري أبصله وأبقى شاكك إن هو اللي بلغ عني، وهو بقي يهز راسه يمين وشمال وبيتسم فيشككني زيادة. وعدت الأيام واختفى جاري كذا يوم، لغاية ما ظهر ثاني فسألته كان فين، فقالي إنه

كان في المستشفى وعمل عملية، وعشان ما عندوش تأمين صحي وعايش على إعانة البطالة طلب مني إني أمضي على ورقة أقول فيها إني باساعده كل شهر بمبلغ عشان ما يدفعش مصاريف العملية، فمضيتله على الورقة.

بعدها زادت مساحة الود، وجه في يوم يزورني ويتكلم معايا، فعرفت إنه كان محاسب في باكستان وجاله الجرين كارد في القرعة، فقرر مهاجر لغاية ما وصل أمريكا، فبقى بياخذ إعانة البطالة ويعيش على إحسان المحسنين الباكستانيين من أغنياء لوس أنجلوس، وإنه بيشتغل من الباطن في مكتب محاسبة عشان يعرف يحول فلوس لولاده، وإنه مستني ياخذ الجنسية ويعدي سن المعاش ويحجب ابنه يعيش في أمريكا، ويرجع هوّ باكستان ويتحوّله المعاش على البنك هناك ويعيش مبسوط لأنه مش مبسوط بالعيشة في بلاد الكفار، وإننا مستضعفين ولازم نساعد بعض لغاية ما المسلمين يبقوا أقويا ويرفعوا راية الإسلام في بلاد الكفار، ويوميها تأكدت إن هوّ فعلاً اللي بلغ عني بتوع التبليغ والدعوة.

٧

طلبت أوبر، وكان فاضل أربع دقائق على ما يوصل، وفضلت مستني لغاية ما وصلت العربية اللي سايقها أمريكي أبيض، وبصلي ولغى الرحلة. فكرت إنه طبعي يلغي بعد تفجير مانشستر. أوبر بعثلي رسالة يعتذر عن إلغاء الرحلة، وإني ممكن أطلب عربية تاني، وعملت كدا، وطلع أوبر ذكي وبعثلي سواق لبناني. السواق بدأ يتكلم معايا، وعرفني إنه أرمني لبناني من باسادينا، وإن كل الأرمن اللبنانيين عايشين في باسادينا، بس بقية الأرمن في لوس أنجلوس عايشين في الفالي.

حكالي إن عيلته في الأصل كانوا جواهرجية، بس سابوا لبنان بعد الحرب الأهلية لأن ما بقاش فيه أمان، وجه أمريكا. حكالي إنه اشتغل زي الجحش لغاية ما جمع فلوس وفتح محل جواهرجي في تقاطع شارع بيكو مع شارع ويستوود، وإنه صرف على المحل ١٦٠ ألف دولار وجاب بضاعة بميتين وخمسين ألف، بعد ما فتح المحل جت عصابة وضربوا نار على المحل، لكن الإزاز كان ضد الرصاص فما حصلوش حاجة، وخذ المسدس من الدرج وطلع ورا الحرامي ضربه رصاصة في صدره، فلف الحرامي فضربه رصاصة تانية في طيزه، جه حرامي تاني من ضهره وضربه فوق راسه فأغمى عليه، لما صحى ما لقاش الذهب اللي في المحل، ولما جه البوليس وحكاهم اللي حصل قالوله يقفل المحل لأن دي عصابات مع بعض ومش هيسيبوه ما دام ضرب نار على واحد منهم.

حكالي إنه كدا انتهى بيه الحال سواق أوبر، وسب ك... أخت أمريكا، وقال إن لو لبنان فضلت زي ما كانت سنة ١٩٧٥ ما كانش سابها وجه أمريكا.

قعدت أواسيه بعد ما الموضوع قلب حزيني، فقالي: «واحد راح لجدّه قاله إنه هيتجوز، قاله ما تعملش زي ما جدك عمل، قاله عملت إيه يا جدي؟ جدّه قاله إذا اتجوزت بتني... عشرين مرّة، وبتتنا... بقية حياتك».

وضاحت و نزلت.

الحادثة دي كانت خلت عندي إحساس دايم بالخوف من إني اتطرد من السكن.
أفكر إنها كانت سنة ١٩٩٤ بعد حادث تفجير نفق الجيزة، لما مجموعة من المتطرفين رموا أنابيب بوتجاز من فوق النفق فانفجرت.

وقتها كنت ساكن في شقة دور أرضي في المنطقة اللي ورا أكاديمية الفنون، زي زي معظم المهاجرين من الأرياف اللي جم القاهرة عشان يدرسوا فن في الأكاديمية.

صحيت على صوت خبط على الباب، فلقيت عزام صاحب الشقة واقف على الباب براسه الصلعة وجلابيته الزرقا المتبهدة اللي قصرت عليه وسايب زرايرها مفتوحة كاشفة صدره المشعر بغزارة، وهو ماسك في إيده عصايته اللي كان بيتسند عليها، وبدأ يتكلم وهو مرعوب: «لازم تسبب الشقة دلوقت، إنت وطلعت، مشددين في القسم بعد الحادثة، ويهجموا على الشقق المفروشة، ويقبضوا على البوابين عشان يدلوهم على الشقق اللي متأجرة بدون تصاريح، وأكيد هيبجوا هنا، وأنا ما عدتش أستحمل الضرب وبهدلة الأقسام، لموا حاجاتكم وأنا هاحطها لكم عندي في الشقة لغاية ما تلاقوا سكن تاني تروحوه». وطلع من جيبه مية وعشرين جنيه اللي كنت دفعتهم إيجار الشهر، وحطهم في إيدي.

دخلت صحيت طلعت، وحكيته اللي حصل، فقعد يزعل: «ما صححتنيش أكلمه ليه؟! وإزاي توافق نمشي؟! أنا هاروحله».

وخرج طلعت راح لصاحب الشقة بدون ما يغسل وشه، وكان طلعت سايب دقنه طويلة مغبرة زي الفنانين، وعينه كانت بتطق شرار.

رجع طلعت فسألته عمل إيه، فقالي إن عزام قاله إن الشقة مش مسجلة مفروش، وعشان كدا ما بيلغش عن اللي ساكنين فيها في القسم، ولو سجلها مفروش هيحسبوا عليه ضرايب على إنها متأجرة بخمس مية جنيه. المهم طلعت فشل في المهمة، وسبنا الشقة وخرجنا ندور على شقة.

طلعت ساب كل حاجة عند عزام، وخذ كتاب في إيده. للوهلة الأولى ما فكرتش هو طلعت هيعمل إيه بالكتاب في الظروف العصيبة دي.

رحنا حي مذكور اللي كنت سكنت فيه أول ما جيت القاهرة لما كنت باشتغل تباع على ميكروباص بالم الأجرة وكان السواق خريج معهد فنون مسرحية قسم تمثيل. كانت عمارة جميلة، وكان أغلب اللي ساكنين فيها مهاجرين أفارقة، كانت بتفوح من شققهم روايح أكل غريبة. ورحت نفس العمارة اللي كنت ساكن فيها زمان أسأل البواب إذا كان فيه شقق فاضية، فقالي إن كلها متأجرة.

واحنا ماشيين شفنا بوكس شرطة، فطلعت قالي: «اثبت»، فثبت. قرب علينا مخبر من العربية وطلب يشوف البطايق. أنا طلعت بطاقتي، بس طلعت ما كانش معاه غير كارنيه معهد سينما.

المخبر سألنا إذا كنا طلبة، فقلنا له: «آه»، فسألنا ماشيين في الشارع ليه، فقلنا إننا بندور على شقة مفروشة.

المخبر بص لطلعت وقاله يوريه الكتاب اللي في إيده، فطلعت إداله الكتاب.
المخبر قرا العنوان بصوت عالي: «قصص من أمريكا اللاتينية»، وبعدين سأل طلعت: «دا كتابك؟». طلعت ما أنكرش التهمة المنسوبة إليه، فالمخبر سأله: «إيه علاقتك بأمريكا اللاتينية؟»، فطلعت أنكر إن له أي علاقة بأمريكا اللاتينية، لكن المخبر أصر إننا نركب العربية لغاية ما يتأكد إن ملناش علاقة بأمريكا اللاتينية.

ركبنا البوكس، وكان مليون على الآخر، بس واضح إن العدد ما كانش اكتمل. واستلمنا واحد لابس جلاية صيفي، وقالنا إنهم خدوه من الشقة، وإنه بيشتغل محامي لو احتجنا خدمة نكلمه، وطلع كارتين إدى لكل واحد كارت.

العربية كان فيها كمان أطباء ومهندسين وموظفين، يعني كانت فرصة كويسة الواحد يكون علاقات جديدة، بس كان فيها كمان واحد ملتحي، كان شكله قلقان وبيكلم نفسه وبيقول: «مش عارف هيعملوا فيّ إيه المرّادي».

المخبر زعق من بره وقال: «امنعوا الكلام جوه البوكس»، وبكدا قضى على أي فرصة للتشبيك الاجتماعي ما بينا.

طلع اتنين عساكر البوكس وقفلوا باب الكابينة.
نزلنا بعد كدا في قسم شرطة مدكور. عرفت إن المخبر اللي مسكنا مش مخبر بس أمين، عشان العساكر كانوا بينادوله بـ«يا سيادة الأمين»، ولما دخلنا القسم كان فيه ظابط بصله وقاله: «دخلهم الحبس يا أمين ربيع».

طلعت بص للأمين ربيع وقاله: «عاوز أتصل بالمحامي بتاعي». قام الأمين ربيع بص للعسكري وقاله: «حطهم في الحبس». العسكري زقنا على أوضة الحبس، اللي كانت زنزانة مترين في مترين، فيها مش أقل من أربعين واحد واقفين ملزوقين في بعض، وريحتها ريحة نتانة، خليط من ريحة العرق والهوا المكروم. أنا اخترت مكان جنب البوابة الحديد للزنزانة عشان أقدر أشم هوا وأتابع اللي بيحصل بره. الحقيقة ما حصلش حاجة تُذكر، لغاية ما جه ظابط تاني وسأل العسكري فين المقبوض عليهم تحري، فالعسكري قاله إنه حطهم في الحبس، فالظابط زعقله وقاله: «طلعهم من الحبس، وقعدهم هنا قدامك. إحنا مش عاوزين مصيبة تحصل في الحبس».

العسكري طلعنا، وقعدنا على الدكك الخشب في الاستقبال، واللي ما كانش له مكان على الدكك قعد على الأرض. لما عدى الظابط تاني، وقف طلعت يتكلم معاه وقاله: «إحنا طلبة في معهد سينما، ومش عارفين إحنا هنا ليه!».

الظابط رد على طلعت: «اتقبض عليكم تحري، ولما يبجي ظابط المباحث تتعرضوا عليه وهوّ بس اللي يقرر مين يفضل ومين يمشي».

ومشي الظابط، فطلعت سأل العسكري: «ظابط المباحث هيجي إمتى؟»، فالعسكري قاله: «بيجي بعد نص الليل».

طلعت خدني على جنب، وقال: «إحنا هنعتصم». كانت أول مرّة أسمع فيها كلمة «اعتصام»، بس وافقت.

قعدنا على الأرض، وطلعت قال للعسكري: «إحنا معتصمين»، فالعسكري قاله: «خدوا راحتكو»، فمددنا رجلينا على الأرض.

بعد شوية رجع الظابط وبصلنا، فالعسكري قاله: «يقولوا إنهم معتصمين يا باشا»، فالظابط قاله: «إذا طلبوا أكل أو سجائر هاتلهم».

بعد نص الليل جه ظابط المباحث. وقفنا في طابور طويل عشان نتعرض عليه، وكل ما نقرب أكثر على مكتب ظابط المباحث أسمع بوضوح أكثر صوت الضرب بالإقلام الي جاي من مكتب الظابط، ويبقى نفسي أرجع لآخر الطابور. في الآخر اتعرضنا على ظابط المباحث وما اتعرضناش للضرب، وقرر رئيس المباحث أفضل أنا في القسم لغاية ما طلعت يجيب البطاقة.

استنيت بره، وبقيت خايف لطلعت يعملها وما يرجعش، وطلعت اتأخر فعلاً، وبدأ رئيس المباحث يسألني إذا كنت أعرف طلعت راح يجيب البطاقة منين فقلتله إني ما اعرفش.

بعد ساعتين رجع طلعت ومعه حلمي زميلنا في المعهد الي كان كمان محامي، ودخل لظابط المباحث إداله كارنيه نقابة المحامين واتعهد يضمننا ومشينا.

لما خرجنا كانت الساعة ثلاثة الفجر تقريباً، ومشينا في شارع الهرم الي كان فاضي تقريباً. أكلنا بيتزا بلدي في محل صغير في شارع جانبي ما بين فيصل والهرم، واشترت الجورنال الي كان عناوين صفحته الأولى فيها أخبار عن القبض على مرتكبي التفجيرات في نفق الجيزة، وقلت لطلعت: «مفيس قدامنا غير إننا نروح لمحمود سليمان نبات عنده».

رحنا لشقة محمود في شارع فيصل، وطلعنا الدور الرابع، وخبطنا على الباب، لكن محمود ما فتحش. طلعتنا دور واحد لفوق فبقينا فوق السطح. فرشت ورق الجورنال على أرضية السطح، وكان الجو برد فطلعت قالي: «حط ورقة من الجورنال على صدرك تحت هدومك واتغطى بورقة تانية عشان ما تبردش». عملت بنصيحة طلعت، ونمت من التعب، وصحيت مع طلوع الشمس فلقيت طلعت مش موجود، فقممت ونزلت الشارع، ورحت على قهوة غسلت فيها وشي واشترت بقسماط من الفرن الي جنب القهوة وطلبت شاي بحليب وقعدت على القهوة أتفرج على المدينة وهي بتصحى.

بعد ما تخرجت من المعهد العالي الي كنت بادرس فيه في القاهرة كسبت ألف جنيه من شهادات استثمار البنك الأهلي أم خمسين جنيه الي كنت كسبتها في مسابقة تنظيم الأسرة الي كانت بتتنشر في الجرايد وأنا في إعدادي، ولأني كنت عاطل عن العمل، وما كانش عندي أمل ألاقي أي عمل، حسيت إن الجائزة جت في وقتها تمامًا، وعملت خطة إني أأجر شقة مفروشة أقعد فيها أشتغل، مع إني دايمًا باقول كدا بس ما باشتغلش في الآخر. رحت لعم عباس السمسار الي كنت اتعرفت عليه من طرف الأمين وليد في قسم الطالبية الي كان مسكني تحري وأنا بادور على شقة فرماني في أوضة الحجز ثلاث ساعات أشم فيهم ريحة تبول آلاف الأشخاص الي اتخطوا قبلي في الأوضة دي لغاية ما اتزنت فسبت بصمتي أنا كمان فيها، قبل ما الأمين وليد يحس بالذنب فيخرجني ويقرر يساعدي ويعرفني على عم عباس السمسار الي كان شغال مرشد للقسم. عم عباس سألني عن مواصفات الشقة الي عاوزها، فقلتله إن أهم حاجة يكون فيها تلفون عشان الناس تعرف توصلي لما أقدم على شغل، وإن كمان ما يكونش إيجارها أكثر من ٣٠٠ جنيه. عم عباس هرش في راسه وقال: «طلبك عندي»، وركبنا ميكروباص فولكس من شارع الطالبية من جوه، وفضل الميكروباص ماشي بينا في دهاليز الهرم لغاية ما وصلنا آخرها، ونزلنا اتمشينا جوه في أحراش الهرم لغاية ما وصلنا لمنطقة سوق فكيهة، وطلعنا سلم عمارة جميلة في عشوائيتها، لغاية ما وقفنا قدام شقة في الدور الثالث، وضرب الجرس. فتحت الباب ست واضح عليها إنها كانت جميلة في يوم ما لكن قطر الزمن فاتها، وفضلت مش معترفة وبتحط ميكياج كثير وبتلبس عقود طويلة زي الستات العواجيز في الأفلام، وكان واضح إنها متعودة على عم عباس، لأنها بعد ما قالت مين وقال أنا عباس، فتحت بلهفة بقميص النوم بدون ما تفكر تغطي نفسها. وبعد ما دخلنا قالتلي أقعد جنبها، فقعدت، وفضلت تنادينني «يا حبيبي» طول القعدة، والواحد في اللحظات الصعبة دي يبقى عاوز شوية حنية تخفف عنه، فانبسطت إني هأجر شقة وفوقها حنية، وفي الأول اترددت تأجر لعازب زي ما قالت، لغاية ما عم عباس قالها إني خريج أكاديمية الفنون، فقالتلي: «لأ، ما دام كدا يبقى إحنا زملا، ولازم أفق جنبك»، وحكيتلي إنها كانت رقاصة في الفرقة القومية للفنون الشعبية قبل ما تعتزل الرقص. واتكلنا على الله ومضينا العقد بتلتميت جنيه وفاتورة التلفون والكهربا عليّ. لولا إحساس التضامن دا من ناس الواحد ما يعرفهاش الواحد مش عارف كان هيكمل إزاي في الحياة الصعبة دي.

المهم الشقة كانت في الدور الخامس، وكانت فيها أوضتين نوم: أوضة نوم كبيرة على الشارع، وأوضة تانية كلها أحمر في أحمر: الحيطه حمراء، الستاير حمراء، الإضاءة حمراء، الأباجورة حمراء. وفكرت إن الأوضة الحمرا دي تنفع بس لليلالي الحمراء، وبعدين عرفت إن الأوضة الحمرا كان فيها خزين صور لحياة صاحبة الشقة مع

أجوازها، وجوابات عاطفية مبعوثاتها من مجند أمن مركزي كانت محتفظة معاها بصور ليه في الزي الرسمي أو على البحر، وكانت الجوابات بتعكس ضحالة في اللغة والخط، لكن بسرعة قررت إني كدا باقتحم خصوصيات حياة صاحبة الشقة، وقفلت باب الأوضة الحمراء اللي قررت ما افتحهاش تاني.

في أول ليلة لي في الشقة نمت على سرير أوضة النوم الكبيرة عشان أعوض تعب أيام اللف في الشوارع. صحيت تاني يوم على صوت خبط الباب، فلقيت واحدة عندها أربعين سنة واقفة على الباب، وقالتلي إنها أم سعاد اللي بتنصف الشقة، فقلتلها إني مش عاوز أنصف الشقة، فقاتلي إنها بتنصف كل شقق العمارة، فقلتلها إني مش محتاج حد ينصفي، وسألته بتاخذ كام في تنضيف الشقة، فقاتلي عشرين جنيه، فقلتلها إني هاديلها العشرين جنيه بس ما تنصفيش، فزعلت وقالتلي إنها ما بتاكلش لقمته إلا بعرق جبينها، فحسيت إني هنتها، فقلتلها تدخل تنصف. فتحت شبابيك الشقة تهويها، ونفضت التراب اللي فيها، وأنا حسيت إنها لما فتحت الشباك كأنها فتححتلي عالم تاني: بيوت قصيرة جنب بيوت طويلة، وبيوت مدهونة بألوان صفرا جنب بيوت متسابة بطوبها الأحمر، وبيوت فوقها ناس بتربي حمام وبيوت تانية ناس فوقها بتربي غنم.

بصيت ورايا لقيت أم سعاد حطت جلابيتها جوه لباسها أبو دكة، وقعدت بتقلها على ركبها العريانة تمسح الأرضية بنشاط، فخذت بالها إني بصيت لرجليها، وطبعًا ما فكرتش إن دا ممكن يكون لدوافع روائية بحتة، وسألته إزاي أنا عايش لوحدي، وقالتلي إن الواحد يلزمه واحدة تطري عليه، فقلتلها إني كويس لوحدي، فقاتلي إني لو عزت حاجة أقولها وما اتكسفش، فوعدتها إني هاعمل كدا.

بعد كذا يوم كنت ابتديت أفهم أجواء العمارة اللي كنت ساكن فيها، والمنطقة اللي كانت بتسيطر عليها الجماعات السلفية، لكن جوه العمارة كانوا ساكنين عائلات بسيطة، وست جوزها هرب لما طلبت منه فلوس تشتري فرخة للولاد، فقالتا معهوش، وتشتريها من مرتبها ولما تجيله فلوس هيسدد اللي عليه، ولما ما عرفش يسدد الدين اللي عليه لمراته ساب البيت وما رجعش. وكان في العمارة كمان طبالين ورقاصات، كانوا شايفيني زميل مهنة وبيتعاملوا معايا بحب، وكان عادي إن الستات المتجوزين يقفوا على سلم العمارة يتبادلوا تفاصيل العلاقات الحميمة مع أجوازهم. بره العمارة كان ممكن تسمع صوت ميكروفونات الجوامع اللي زي ما يكون معمولة ميكس صوت لما شيخ بيخطب يوقف والثاني يكمل أو يتكلموا كلهم مع بعض، وصوت الشتائم المتبادلة ما بين المتبرجات والمنقبات، خصوصًا لما تختلط فيها البذاءة بالألفاظ الجنسية: «أصل إنتي لو وراكي راجل ما كنتيش تمشي على حل شعرك، لو لابسة لباس انزلي وأنا أقلعهولك، ولو ما عندكيش لباس انزلي وأنا أقطعهولك».

كان ممكن تسمع صوت خناقة فتفتح الشباك عشان تبص، فتلاقي واحد ضرب واحد بساطور على راسه فتحاله. لحد هنا المشهد عادي، لكن اللي ما كانش عادي بالنسبالي إن اللي اتضرب وراسه مفتوحة وغرقان دم يفضل يقول: «اضرب كمان». الأغرب إن الناس يروحوا بعدها لي ضرب بالساطور ويقعدوا يهدوا فيه ويخدوه ويمشوا، واللي اتضرب يتساب مرمي في الشارع غرقان في دمه.

كان أجمل حاجة في سوق فكيهة إن مفيش مسافات، تفتح البلكونة تلاقيك كأنك قاعد مع جارك ومراته

في أوضة النوم، تفتح شباك المنور تلاقيك جوه صالة الجيران، تيجي تنام تلاقيك سامع حوارات الجيران في أوضة النوم.

كانت أجواء حميمة للفقر، شبه الأجواء الباريسية اللي وصفها «جورج أرويل» في مذكراته «إلى أسفل وفي الخارج في لندن وباريس»، لما كان بيشتغل يغسل صحون في المطاعم قبل ما ربنا يفتحها عليه ويكتب روايات خلته يلبس بدل، وحسيت أد إيه الأجواء دي لسوق فكيهة ممكن تبقى خلفية صوتية وبصرية تخليني أركز في هدفي إني أكتب الرواية اللي هتنتهي كل الروايات.

٣

بعد ما استقرت في الشقة، وجبت عدة الكتابة، وعيت إن كان عندي صراع مع الوقت عشان أخلص الرواية اللي هتنتهي كل الروايات قبل ما الفلوس اللي معايا تخلص، وبدأت أكتب في الرواية. كانت رواية أشبه بنعي طويل لقارئ الوحيد اللي اتعرفت عليه بالصدفة. كنت وقتها دايمًا باستغرب إذا كان فيه حد يبقرا الحاجات اللي كنت بانشرها في جريدة بتطلع في لندن، لغاية ما عرفت من عصام تاجر المخدرات الشاب إنه بيشتري الجورنال كل يوم وبيدور إذا منشوري فيه حاجة، وكان الوحيد اللي بيقتعد يناقشني في قصصي، ويعاملني معاملة محترمة، ويثق فيّ وبيدخلني بيته، لدرجة إنه عرض عليّ إني أقعد معاه لما ما كنتش لاقى سكن، وقعدت معاه فعلاً كذا يوم لغاية ما حسيت بحرج إني أبقي قاعد معاه هوّ ومراته في شقة واحدة، وشفّت إزاي ظروفه اتدهورت لما دخل في سكة البودرة لدرجة إن ما بقاش معاه فلوس يصرف على بيته، ولغاية ما نهي حياته.

كنت متشبع بالرواية اللي كانت مكتوبة بالعامية ومليانة بألفاظ بذيئة بتعبر عن لغة الشخصيات، وحسيت إني يا إما أخلص الرواية يا هتخلص هيّ عليّ. وبديت أتحوّل لكائن مختلف، عايش في الشقة بالأندرويد لأن الجو كان حر في الصيف، وبقّت صفحات الرواية متننورة في كل مكان في الأوضة بشكل عشوائي ومحدش ممكن يعرف ترتيبها غيري، ولما جت أم سعاد الشغالة تنضف الشقة سألتني إذا كنت محتاج الورق دا ولا ترميه، حسيت إنها وجهتي إهانة بدون قصد، وبقيت كل شوية أتخاّنق معاه لما تحاول ترتب الورق فتقضي على كل خططي للرواية، لغاية ما قدرت أقنعها إنها تنضف الشقة من غير ما تدخل أوضة النوم.

رغم إني كنت بادفع تلتميت جنيه على أساس إن الشقة فيها تلفون، بديت كل ما التلفون يرن أرفع السماعة فيطلع حد بيكلم صاحبة الشقة، اللي اكتشفت إن خط التلفون كان خط مشترك مع شقتها، فتقولي أحط السماعة، وكانت أغلب المكالمات بتجيلها بعد نص الليل من رجالة، وبطلت أرد على التلفونات، ونزلت أتخاّنق معاه بعد ما اكتشفت إني اتضحك عليّ، فقالتلي إنها تعبانة، ودخلتني أقعد جنبها في أوضة النوم، ومسكت إيدي وقعدت تشتكي من الوحدة، فصعبت عليّ وسبتها ومشيت.

بعد أول شهر اتخاّنقت مع صاحبة الشقة لما جت فاتورة التلفون عالية، وقالتلي نقسمها بالنص، فقلتله إني أصلاً ما باتكلمش في التلفون وما ينفعش تحاسبني عن أشهر ما قعدتهاش، فقدرت مبلغ عن الشهر اللي

قعدته. وكنت ممكن أقعد في الشقة فترة أطول لولا إن صاحبة الشقة طلعت تتكلم معايا وقالتي إني قاعد في الشقة لوحدي وعندي أوضة فاضية - قصدها على الأوضة الحمراء - وإن فيه واحدة معرفة اتطردت هيّ وجوزها من السكن اللي كانوا فيه، وهيّ ما تستحملش البهدلة عشان حامل، وعاوزاني أستضيفها في الأوضة الفاضية لغاية ما جوزها يلاقي سكن، فرفضت، لكن هيّ قعدت تحايل فيّ إنهم هيبقوا كذا يوم بس، لغاية ما جت البنت وقعدت في الأوضة الحمراء، وبدأت تفتح حوارات صغيرة معايا، تسألني إذا عاوز حاجة أشربها أو أكلها، وعرفت إنها كانت بتشتغل رقاصة لغاية ما حبلت، ولأننا كنا في الصيف فكان عادي إنها تحفف لبسها لدرجة إن عند وقت معين بقت بتلبس قمصان نوم بس، ورغم إنها كانت حامل لكن دا ما يمنعش إني بديت أخاف إني أغلط معاها، وبديت أشك إنها متجوزة، وحسيت كأن فيه مؤامرة عليّ، وممكن تتبل عليّ إني أبو اللي في بطنها وأبقى كدا أنا لبست في الحيلة.

خدت قرار سريع، ولميت حاجتي وروايتي، وقلت لصاحبة البيت إني ماشي، فقالتي إنها مش هتقدر تديني الشهر اللي كنت دافعه تأمين إلا بعد ما تيجي الفواتير، فقلت لها إني متنازل عن التأمين، وخدت نفسي ومشيت.

من يومها عرفت إن لما بنعل بطموحنا أوي في الحياة ممكن نقع ورقبتنا تتكسر، وإننا لما نحاول نكتب الرواية اللي هتنتهي كل الروايات ممكن نصحى من النوم في يوم نلاقي نفسنا في الشارع، وننسى من وقتها فكرة إننا نكتب أي حاجة.

ركبت ميكروباص الترامكو من الجيزة للسيدة عيشة، وقعدت في الكرسي القدماني. السواق قالي: «قدام واحد بس يا برنس»، فهمت إنه هياخد حد من الطريق. وحملت العربية، وكلم مجدي قاله يستناه في الملف. مجدي ركب. السواق اللي ما كنتش لسه أعرف إن اسمه «علي» قاله: «دخلت الدولاب؟»، قاله: «آه، أنجزت»، وقام طلع صباح الحشيش وبص ورا للركاب وقالمهم: «بعد إذنكو يا رجالة، بعد إذنك يا مدام، بعد إذنك يا آنسة»، وطبعًا محدش اعترض. مجدي بصلي وقالي: «ألفك معانا؟»، قتلته: «لا، تعيش يا مجدي»، وقلب علبة المناديل وسخن الحشيش ولف سيجارتين وولع وشد نفسين وإداني السيجارة أباصيها لعلني. علي سألته: «لقت الجثة؟»، مجدي قاله: «لا، يا عم دي اتاخذت من الميدان عيني عينك»، علي قاله: «جبت صورة المحضر؟»، مجدي رد: «رحت القسم قالولي المحضر تجيبه من النيابة»، علي قاله: «طب ما تروق يا عم». مجدي شتم علي بلفظ خارج وقاله: «أهدا مين يا عم، دي مكنة بخمستلاف جنيه»، يقصد الموتوسيكل بتاعه اللي اتسرق. مجدي بصلي قتلته: «ربنا هيعوضك يا مجدي إن شاء الله، ويعتلك مكانه مرسيدس»، مجدي ضحك وقالي بتريقة: «آه، ما هو أصل اليومين دول الواحد مننا بقى بيكسبله ألف جنيه في اليوم»، وبعدين اغتم وقالي «زمان كنا نحشش ونقوم نشتغل، دلوقت بقينا نحشش وما نقومش من مكاننا، مش عارف العيب مننا ولا من الحشيش؟»، فما عرفتش أجاب، وبعدين سألتني: «أمال حضرتك بتشتغل إيه؟»، قتلته: «باحث»، قالي: «باحث، يا دي الداهية السودا!»، قتلته: «يا عم باحث مش باحث»، علي اهتم بموضوع باحث دي وقالي: «باحث في إيه يا بيه ولا مؤاخذه؟»، قتلته: «باحث اجتماعي»، قالي: «والنبي يا بيه لتعملوا أبحاث عن سواقين الميكروباص، ما بقيناش عارفين نلاقيها منين ولا منين... ظباط المباحث ما وراهمش غير سحب الرخص، والظروف ما عادتش مستحيلة!». بصيت لعينين علي الحمرا المدمعة واللي فيها بؤس الدنيا، وكنا وصلنا السيدة عيشة، وأنا بافتح الباب ونازل من العربية خبطت عربية مرسيدس بباب الترامكو، الراجل اللي سايق المرسيدس زعق وقال: «مش تحاسب؟!»، علي قاله: «امشي يا فخيم، يا غتيت»، قام سواق المرسيدس مشي وأنا رحت أركب ميكروباص المقطم.

راكب ميكروباص من المقطم للسيدة عيشة. الميكروباص بيضم خليط مميز من البشر من الصعب يجتمع تحت سقف واحد: صعيدي لابس جلاية رمادية، وصناعي بلبس صناعي، وراهبة في دير بلبس راهبة لبني وإيشارب ملون، وممرضة في مستشفى بجيبة قصيرة تحتها كولون شفاف، وشاب متعلم في أواخر سن المراهقة، وأنا - عادة الناس بينادوني بـ «أستاذ».

لمحت الخليط العظيم من البشر وأنا باركب عشان أختار هاقعد فين، واخترت السلامة وقعدت جنب

الشباب المتعلم.

بعد ركوبي بوقت قليل وصل الميكروباص ميدان النافورة، واستعد الراكب الصعيدي للنزول، ولأنه دافع جنبيه فله باقي نص جنيه لأن الأجرة لميدان النافورة تقل نص جنيه عن الأجرة للسيدة عيشة. السواق قال للراكب إن معهوش نص جنيه، وسأل الراكب إذا حد معاه فكة جنيه، فمحدثش طلع معاه فكة، وتحول الموقف ما بين السواق والراكب لمعركة محتدمة بالأيدي وبصق متبادل من الطرفين، وتدخل الراكب محاولين فض الاشتباك، وتدخل عسكري المرور في الميدان الي أدرك بسرعة إن الموضوع ما يخصوش ومشي، وفضل الصعيدي يشد في السواق لغاية ما تدخل الراكب الصنایعي وركب جنب السواق، ودفع الصعيدي وقال للسواق يمشي.

كانت دي ذروة مبكرة ما باتوقعهاش عادة في أول ركوبي ميكروباص، وبدأ الإيقاع بعدها طبقاً للضرورة الدرامية يهدا.

الراهبة بدافع من الحكمة قالت للسواق إن الرجل الصعيدي في حكم والده وما كانش يصح يشتمه، وإن منظره تعبان نفسياً. الراكب الصنایعي رد عليها بزعيق: «كلنا تعبانين نفسيين، أنا تعبان نفسياً، وإنتي تعبانة نفسياً، بس كل واحد يخلي تعبته النفسي لنفسه ما يطلعوش على غيره. أنا مثلاً كان ممكن أركب جنبك، بس ما ركبش عشان أنا ما احبش أركب جنب ستات ولا جنب حد، عشان لا حد يطلع تعبته النفسي عليّ ولا أطلع تعبتي النفسي على حد»، فشافت الراهبة إنه من الحكمة إنها ما تردش وصمتت. أنا سألت الشاب الي جنبني: «هيّ ماها قلبت مصحة عقلية كذا؟!»، فرد رد متزن وقلالي: «هما الاتنين غلطانين». الفتاة الممرضة الي قاعدة جنب الراهبة جتلها مكالمة تلفون وردت، وبدا من المكالمة إن فيه معزة مع الطرف الآخر الي قعدت تخاطبه بـ«يا أهبل» و«يا روح أمك»، وفي كل مرة تناديه بلفظ من ألفاظ المعزة تنظر لها الراهبة نظرة تدل على اندهاشها من الي قاعدة جنبها. الممرضة خاضت في تفاصيل المستشفى الي بتشتغل فيها، وإنها مستشفى غريبة، كل شوية يقفلوا عيادات ويفتحوا عيادات، بس العمليات شغالة على طول ما بتقفلش، وإنها بتاخذ مية وعشرين جنيه في الشفت التمن ساعات بس بالمحبة بيقوا ستة، لكنها مش رايحة الشغل النهارده لأن جالها كذا مصلحة في مصر الجديدة ومدينة نصر، وكل مصلحة ممكن تطلع فيها بميتين جنيه أبرك ميت مرة من الشفت. لوهلة حسيت إني جوه أسانسير فيلم «بين السما والأرض»، وقلت للسواق: «يمينك لو سمحت»، ونزلت.

٣

وأنا رايح أركب ميكروباص لسوق الإمام، حصلت خناقة على الدور، ودا شيء عادي، ووقفت أتفرج عشان أعرف مين الي هيحمّل. واحد من السواقين ظهر فجأة لي عليه الدور وقال: «أنا مش هاخليه يحمّل ولا زبون وهوّ شارب خمرة»، السواق الي شارب خمرة رد عليه بلهجة الي شاربين خمرة في فيلم «ليه يا بنفسج» لرضوان الكاشف وقاله: «أنا شارب خمرة؟!»، وهوّ هيعيط تقريباً، فالسواق الثاني قاله: «أيوه

شارب خمرة، ومش هتحمّل ولا زبون من الموقف». تغير لغة الكلام من ضمير الغائب لضمير المخاطب كان كليل بتصعيد الموقف ما بين السواقين، ودا نتج عنه تدخل حشد كبير من الموجودين في الموقف، ما بين من هو مفقوع عينه وعليها بلستر طبي أبيض، ومن هو مشروم وشه، وهنا قال السواق المخمور لزميله: «أنا هامشي، بس لو إنت راجل وأمك جايبك حر انزلي البساتين وأنا هاعرفك أنا مين!»، وهنا السواق اللي تدخل لمنع السواق زميله حاول يطير في الهوا عشان يصيب زميله السكران في بطنه، لكن الحشد الموجود منعه عشان ما ينفجرش كرش زميله المليان بالخمرة فيغرق الركاب، وطلع السواق السكران جري على ميكروباصه، وانطلق بالميكروباص في مشهد يصعب التكهن منه إذا كان السواق هوّ اللي سكران، ولّا الميكروباص هوّ اللي سكران، ولّا هما الاتنين سكرانين.

أخيرًا عاد الهدوء للموقف، وركبت ونزلت قريب من تحت كوبري التونسي، وكان فيه حشد كبير من الشباب كل واحد ماسك كلب أضخم من الثاني، والكلاب بتحاول تهجم على بعض في مشهد فكري بصراع الكلاب في فيلم «أموريس بيروس» لإيناريتو، فمشيت بسرعة من المكان ليتحول صراع الكلاب لحقيقة، وعديت بعدها على مجموعة من الخيول الجميلة نقلتلي شعور بالهدوء والسكينة، وهنا بدأت رحلتي للسلام الداخلي ما بين أطلال الموتى وأشلاء المدينة.

٤

وأنا راكب الميكروباص ركبت واحدة ست كبيرة في السن جنب السواق قدام، وجه السواق يدخن، فالست غطت وشها بالإيشارب، والشاب اللي سايق سألها بذوق: «مضايقاكي السيجارة يا أمي؟»، فقالتله: «لأ»، فقالتله: «لأ مضايقاكي»، وقام رمى السيجارة من الشباك، الست نزلت بعد شوية، واللي راكب جنبي على الكنبه اللي ورا السواق قاله: «عداك العيب يا صاحبي، عملت الصبح. فيه سواق تاني يلاقي الزبون متضايق ينفخ في وشه عشان يضايقه أكثر»، فالسواق رد عليه بصوته الأجهش الحقيقي: «لا يا ابن عمي، فيه ناس فاكدة إن سواقين الميكروباص كلهم ولاد حرام، بس فيهم وفيهم، إيديك مش زي بعضيها»، فاللي راكب ورا قاله: «ما أنا سواق ميكروباص برضه يا صاحبي، مش أفندي»، وبص ناحيتي بتأفف من الأفندية، وكمل: «فيه سواق ميكروباص لما يلاقي زبون معهوش الأجرة ينزله»، فالسواق رد عليه: «دي ناس فاكدة الدنيا رايحة بس يا ابن عمي، بس الدنيا رايحة وجاية، ولو كانت دامت لغيرك كانت دامتلك»، ورجع السواق بضمه بانتشاء اللي حاسس إنه هيقول كلام مهم وحاسم وقال: «فيه حاجة مهمة جدًا يا صاحبي بتفرق: العلام والتربية، فيه ناس متعلمة ومتربية حتى لو سواقين ميكروباصات، وفيه ناس معاها شهادات وسايقة أفخم عربيات وما عندهاش ريحة التربية». وكنا معدين من قدام شركة «الفاشل» التجارية، وفي اللحظة دي كان هيخبط في عربية ملاكي جديدة صاحبها كان بيعدي منه، فقاله اللي سايق الملاكي: «يا حيوان!»، فقام زنق على سواق الملاكي وقاله: «العيب مش عليك، العيب على اللي ركبهالك. لو تعبان في قرشها ما كنتش هنتها». ونزلت بعد ما خدت جرعة من الحكمة تكفيني بقية اليوم.

لما رجعت من أمريكا سنة ٢٠٠٨ جالي شغل أدرس في الجامعة الأمريكية في القاهرة الجديدة، وما كانش وقتها سواقين التاكسي بيرضوا يروحوا القاهرة الجديدة، والفلوس اللي بيدفعوها في الشغل يا دوب على أد المصاريف، فبقيت أضطر أنزل بدري ساعتين أركب ميكروباص للمفارق في المقطم، وبعدين ميكروباص للحى السابع في مدينة نصر، وبعدين أركب ميكروباص لموقف العاشر، وبعدين من موقف العاشر أركب أتوبيس لجهاز مدينة القاهرة الجديدة، ومن هناك أركب عربية ربع نقل مع عمال التراحيل توصلني للجامعة، فأدخل أقول محاضرتي وأطلع أبدأ الرحلة بالعكس.

كانت فيه حاجة حميمة في إني أركب عربية ربع نقل، لأنها كانت بتفكرني بطفولتي لما كنت باركب العربيات الربع نقل عشان أروح المحلة. الفرق الوحيد إني وأنا صغير كانوا بيركبوا لعربيات الربع نقل كنب خشب ويغطوها من فوق، لكن عربيات عمال التراحيل بتفرش على الأرض أو تفرص على ركبك، وبتكون مكشوفة، فبتشوف الحياة واضحة قدامك.

بعد شوية بدأ التجهيز للافتتاح الرسمي للجامعة في حضور سوزان مبارك، وقبل الافتتاح بأسبوع انتشرت الشرطة، واختفت عربيات الربع نقل اللي كانت بتوصلني الجامعة، وبقيت محتاس أروح الجامعة إزاي وأرجع إزاي، لكن الأسبوع اللي قبل الافتتاح شفت إزاي بتحصل المعجزات، وشف ت إزاي اتعاد رصف الشوارع كلها، وتم تركيب عواميد إنارة فاخرة في كل الشوارع، والشوارع كلها اتزرعت بأنواع غالية جداً من النخل وأنواع فريدة من الزهور، وإزاي بقت كأنها حطة من الجنة، لكن بعد الافتتاح شفت إزاي الورد بيموت، والنخل يسقط على الأرض، لأن ما كانش لسه فيه شبكة ري تسقي الزرع. وعلى أد ما زعلت على الزرع اللي مات، على أد ما فرحت إن العربيات الربع نقل رجعت تشتغل من تاني.

إمبارح كان عندي ميعاد مهم جداً. خرجت من البيت وأنا لابس الحطة المكوية والبلوفر الملون، وحطيت برفان وخرجت للعالم مليون ثقة.

وقفت في الشارع، لكن منظري المتألق خللاً سواقين الميكروباصات ما يلتفتوش ليّ، لغاية ما وقف قدامي ميكروباص بالصدفة، فركبت، ودفعت خمسة جنيه، فرجعلي السواق ثلاثة جنيه وربع، وقللي: «الباقي يا فنان». وكان ركب جنبي شاب أسمر، ودفعت خمسة جنيه هوّ كمان فقاله: «الباقي يا عسلية»، وخذ الباقي منه من غير ما يرفع عينيه من على الموبايل الإسمارت اللي كان بيتصفح فيه الفيسبوك. ولو هلة حسيت أد إيه إننا شعب متسامح، وإن السواق دا شكله كدا يفضل طول النهار ينمط الناس اللي بيركبوا معاه، واتاكدت من الحكاية دي لما طلعت واحدة فقالها: «اتفضلي يا مدام»، وطلعت بنت فقالها: «اتفضلي ورا يا آنسة». وقعدت مستغرق في تأملاتي لغاية ما وصلنا لنقطة اللاعودة على منزل المقطم، وشف عربيات ملهاش عدد مرصوفة ورا بعض، فعرفت إن ربنا قرر يعاقب السواق على تنميطة للركاب ويعاقبنا معاه، وفضلنا على

المنزل ساعة إلا ربع، لغاية ما ميعادي المهم فاتني وبقي هاين عليّ ألف وأرواح. يعني خدنا إيه يعني من المواعيد في البلد دي غير البهدلة وخلاص!

٧

بعد ما تعبت من المشي في وسط البلد بالليل لقيت ميكروباص بينادي: «عيشة.. عيشة.. عيشة»، فركبت فيه، ونزل السواق اللي فارد شعره بالجيل بكمية كبيرة وعمل النداء الأخير وانطلق بعدها. دخل من قدام قصر عابدين اللي بعد التوضيبات الجنية اللي قدامه بقت متنفس للعائلات البسيطة، ومنه على الحلمية، وبعدين شغل أغنية لمطرب مجهول بالنسبالي بيغني موال بطريقة المهرجانات بيحكى حكاية واحد «شاف مراته في سريره نايمة مع عشيقها، جري على العشيق هيغزه، قالتله أنا ادبتله جسمي، اطلع بره البيت يا كلب، دا الشقة اتكتبت باسمي، أصل انت جوزي عرفي لكن هو جوزي رسمي»، وإضاءة بيوت النور في الميكروباص بدأت تتلاعب مع موسيقى الأغنية، ومع دخولنا الحلمية والتدافع البشري الحاد ومعاكسات السواقين في العريبات للستات ذوات العبايات أضفت الموسيقى على الواقع نكهة من نوع خاص، لغاية ما لمح السواق تهديد الزحمة في آخر الشارع، قام وقف الأغنية، وسأل: «حد نازل البيباني؟»، فمحدث رد، فكرر التنويه: «آديني بأسأل أهو إذا حد نازل البيباني، عشان أنا هادخل يمين، فما يجيش حد يقولي إنه كان نازل البيباني عشان أعصابي بتتعب». وواضح إن الزعيق تعبه قام غير الأغنية وشغل أشعار لهشام الجخ، وقام دخل يمين في حوار حلمية اللي يا دوب تعدي عربية واحدة، وهنا ظهرت براعته في المرور من أوعر المناطق، وطلع فجأة من عند جامع السلطان حسن، فتجانست الأشعار مع المآذن ومنظر القلعة المتنورة بالليزر شبه محلات العصير، وبقي كل نفسي إني أهرب من المشهد المهيب دا وأروح.

٨

كان عندي ميعاد شغل مهم ولابس بنطلون جينز وفوقه جاكيت كاجوال لزوم الرسميات، ووقفت أستنى تاكسي، فلما عدى ميكروباص الأول وقفته وركبت. بعد شوية وقّف الميكروباص راجل كبير في السن وركب، كان هوّ كان لابس بنطلون جينز وجاكيت كاجوال، إداني عشرة جنيه لما لقاني ماسك اتنين جنيه في أيدي، وبعث العشرة جنيه للسواق مع اللي راكب قدامي وقتله: «اتنين السيدة عيشة بعد إذنك»، فرجعلي ٦ جنيه ونص، وبها إن الأجرة مية خمسة وسبعين قرش قلت مش مشكلة الربع جنيه، وإديت لي قاعد جنبي تمانية جنيه ونص، قام حطهم في المحفظة وطلّع ربع جنيه وبصلي وهوّ مبتسم: «الربع جنيه موجود وحاضر»، فقلتله: «ربنا يزيد وبيبارك». فقالي: «ربنا يكرم سعادتك». وفي خلال اللحظة اللي اتكلمنا فيها لمحت تجاعيد الزمن على وشه، والختام أبو فص أسود في إيديه، وافتكرت ناس طيبة كثير الواحد قابلها في حياته، وقلت لنفسي: ياه، ياما فيه حاجات حلوة كثير بتفوت الواحد لما بيعزل نفسه عن الناس!

٩

كنت رايح مشوار وابني اللي عنده ثلاث سنين أصر يروح معايا، ولأن المشوار في شارع تسعة قررت أوريه حاجة جديدة ونركب ميكروباص. سواق الميكروباص كان تقريباً مبرشم، وركب راكب تقريباً مبرشم برضه ورجله طويلة فاتزنق وما عرفش يدخل جنب الشباك، فالسواق بصله وقاله: «ادخل جوه عشان الناس تعرف تركب»، ودا أصر وحلف ما هو داخل، وبدأ صوتهم يعلى قصاد بعض، والراكب بدأ يزعق للسواق ويقوله: «بص قدامك»، وأنا اتدخلت وقلت للراكب مش مهم يدخل جوه، وقلت للسواق إن لما حد يبجي ممكن الراكب يعديه، لكن ما عرفتش أهدي النفوس، وبدأ الراكب يشتم السواق ويسأله: «هيّ الحباية اشتغلت ولأ إيه؟»، والسواق بدأ يقوله: «كلامك تمشيه في البيت على حريمك مش تمشيه عليّ»، ولقيت ابني باصصلي فابتسمت، وفتحت الشباك عشان يشم الهوا، والهوا كان جميل، وكل شوية السواق يقف والراكب يقوله ينزله عشان يعرفه مقامه، وتقريباً كان فيه إحساس عند الركاب اللي أغلبهم كانوا ستات إن الموضوع ممكن تتفتح فيه مطاوي، فبدأوا يحاولوا يهدوا النفوس، وابني بدأ يضحك من غرابة الموقف كأنه بيتفرج على عرض تمثيلي فكاهي لغاية لما نزلنا، وبعدين قالي: «عاوز أبقى أركب معاك الميكروباص تاني».

بعد ما وقفت كذا تاكسي، نختلف بعد ما السواق يرفض يشغل العداد، وكل واحد يسأل: «بتدفع كام في المشوار يا بيه؟»، فأرفض إني أركب. فجأة يقف سواق سايق تاكسي شاهين أبيض حالته متهالكة لدرجة إني شكيت إن فيه عداد. على الكرسي القدماي طفل صغير، والسواق قالي اركب ورا، فركبت وأنا بافكر إيه الي خلّا الطفل دا يقعد قدام. على عكس سواق التاكسي الأقرع من قدام وشعره أكرت من ورا، الطفل شعره ناعم وعينه عسلية. الطفل قعد يزق ويقول للسواق يعلي الأغنية الي شغالة في الراديو، فيعليها السواق، ويزمق الطفل ويعيط لما السواق يرفض يعلي زيادة، فأقول للسواق إن دي زمزقة قبل النوم، فيزق الطفل لورا على الكرسي ويقول ينام، لكن الطفل يزمق زيادة ويرمي نفسه على الدواسة، فالسواق يوطي ويقول: «عاوز تجيب اللعبة.. أنا أجيبها لك»، ويوطي عشان يجيب اللعبة ويقرب من العربية المرسيدس الي قدامه الي وقفت بسبب الزحمة، فأنبه السواق إنه هيخبط في العربية الي قدامه، فينتبه بس بعد ما يكون جاب اللعبة - لعبة رخيصة من اللعب البلاستيك الي بتتوزع مع وجبات ماكدونالدز - فأقول للسواق يمكن أحسن لو الطفل جه ورا عشان يعرف ينام وأنا أطلع قدام، فيقولي إن الطفل الي اسمه محمد بقاله أربع شهور قاعد على الكرسي القدماي، وفجأة زي في أفلام داوود عبد السيد لما الشخصيات تقرر تحكي حكايتها من غير ما حد يطلب منها، يقولي السواق إن أم الطفل هربت وسابت البيت واتجوزت عشيقها عرفي، وبعد ما يدعي عليها يقول إنه لازم يلاقي واحدة يتجوزها عشان تربي العيال، ويقول إنه ودي البنت لخالتها تربيها عشان ما ينفعش تتمرمط معاه في التاكسي، بس الولد ما ينفعش يسييه لحد يرييه وهو عايش. الولد الصغير يقرب اللعبة مني ويديها لي فأهزها فتعمل صوت فيضحك، وأبوه يقوله: «بكرة يا محمد أجيبك لعبة جديدة.. عاوز لعبة إيه يا محمد؟»، فمحمد يرد يقوله: «عاوز قطة»، فيقوله: «بكرة أجيبك قطة يا محمد». وينتهي المشوار فجأة، وتنتهي معاه حكاية من حكايات التاكسيات.

كان عندي ميعاد في وسط البلد، وفعلياً ما كنتش ناوي أتأخر، واستحميت ولبست بنطلون وكنت خلاص هالبس التيشيرت، لكن لقيت الوقت بدري فقررت أكل لقمة وأشرب قهوة. جبت رغيف عيش من الفريزر، وفتحت باب الفرن وولعت الشعلة، وقفلت الباب، وفتحت باب التلاجة، وطلعت الجبنة القريش وحطيتها في طبق وحطيت عليها نقطتين زيت، وفكرت إن جايز أحسن أشرب شاي بدل القهوة، وقفلت باب التلاجة، وفتحت باب الفرن أخرج العيش فلقيته ما سخنش، ولقيت الشعلة اتطفئت، فجببت الولاة أولعها تاني، فهبت نار جامدة نظرتني لورا متر، لكن استجمعت قوتي ورجعت قفلت باب الفرن، وخذت نفس عميق.

النار حرقت شعر جسمي وشعر الحواجب وأجزاء من شعر الراس. دخلت الحمام بصيت في المراية وبديت أفرك الشعر البني المحروق، وافتكرت لما الحلاق قال لي إن أفضل طريقة أتخلص بيها من شعر الودان إنني أحرقه، وقررت إنني أستحمي ثاني، فاستحميت، وكنت حريص إنني أستخدم شامبو ريحته نفاذة عشان أضيع ريحة شياطين الشعر.

بعد ما استحميت عملت قهوة إسبرسو عشان أفوق من الصدمة، وفي وسط تأملي لي حصل القهوة اتعملت وبدأت تغلي لغاية ما طلعت ريحة القهوة المحروقة، اللي اختلطت بريحة شعري المحروق، فشربتها، وبديت أغرق جسمي بمزيل العرق، وقلت جازي يغطي على ريحة الحريق، وبدأت أحس إنني هاتأخر، فلبست ونزلت.

بسبب التأخير قررت أركب أول تاكسي يقابلني، وفعلاً وقفت التاكسي وقتلته: «وسط البلد؟»، فالسواق من غير ما يبصلي قال لي: «اركب»، فركبت.

السواق برغم إنه كان باصص قدامه، لكن كان ملحوظ انحنائه لقدام، ومن فتحة بقة شفت أسنانه الواقعة بسبب كبر السن. فضل السواق ماشي ببطء، وأنا بديت أقلق إنني مش هاعرف أوصول في ميعادي، وما بقيتش عارف هينزل منحنى المقطم إزاي، وفكرت إنني ممكن أنزل أركب تاكسي ثاني، لكن استحمرمت الفكرة، فقررت إنني أكمل معاه والي يحصل يحصل. وبصيت على شكله، وسألته: «إنت حضرتك عندك كام سنة؟»، فقالي: «مش فاكرا، أصلي تعبان، بس فوق السبعين». صوته كان عامل زي اللي بينازع في الروح، ومنظر المنديل على قفاه وهو بينز عرق إدي للعربية ريحة عجز ما رغم إنها مش قديمة. قتلته: «ربنا يديك طولة العمر»، وسكت.

سألته إذا كان ممكن نشغل التكييف، فقالي: «التكييف عطلان»، وبدأ يحط إيده على مروحة العربية يشوفها بتطلع هواً ولألاً، لكن الظاهر كانت عطلانة هي كمان.

وإحنا نازلين، وبسبب سواقته البطيئة، بدأت العربيات تزمزله، وحاول يتفادى ببطء حفرة في المنزل بقالها سنين ما بتصلحش، فعدي إنسان محترم لابس بدلة بعربيته الفخمة وقاله: «يا حيوان!»، ما باصش ناحيته، وجاب المنديل القماش من على التابلوه ومسح عرقه وكمل سواقه، وأنا قتلته: «معلش، الناس ما عاديتش بتحترم بعض»، فما ردش، فبديت أتخنق، وقررت أعمل زي الأفلام لما البطل يكون قلقان وأولع سيجارة، بس قلت أسأله: «بعد إذنك ينفع أدخن؟»، فقالي: «لأ.. ممنوع.. معلش أصلي تعبان، وعندي حساسية وباتعالج»، فقتلته: «ما أنا عشان كذا قلت أستأذن الأول».

كمل سواقه، ولما وصلنا السيدة عيشة لقيته كمل ناحية فم الخليج. شاورله شاب ومعه واحدة وقاله: «القصر العيني؟»، فقالي: «ناخده في طريقنا؟»، فقتلته: «ناخده». لما وصلنا القصر العيني واتحشرنا في وسط الزحمة، ما بقيتش عارف هاوصل إمتي، لغاية ما فرجت بعد شوية واحنا رايمين ناحية القصر العيني. الشاب واحنا مقربين من مستشفى القصر العيني قال للسواق: «مش قتلتك مستشفى القصر العيني؟»، فالسواق قاله: «فكرتك تقصد شارع القصر العيني!»، «لأ، كنت أقصد المستشفى»، فقاله: «طب ما هي دي

المستشفى»، فقال له الشاب: «إنت هتتذاكى عليّ؟ دا القصر العيني الفرنسي.. أنا قتلتك القصر العيني»، فقال له: «طب ما هو القصر العيني وراها»، فقال له الشاب بزعيق: «يعني عاوزنا نمشي في الشارع في الحر دا؟»، فدخل السواق شمال من عند القصر العيني الفرنسي، وكان الشارع واقف تمامًا، ففتح الشاب الباب ورمى للسواق خمسة جنيه، وخذ البنت اللي معاه ومشيو، والراجل ما علقش.

كان دمي محروق من تصرف الشاب اللي أخزني على الأقل ربع ساعة على ما نلف ونرجع شارع القصر العيني تاني، ولما عدينا قدام القصر العيني القديم السواق قالي: «دا القصر العيني القديم، بناه الملك فؤاد الأول ربنا يرحمه، أبو الملك فاروق، ومنه خرجت خارجة جدي الله يرحمه، وشيلته على أكتافي»، وبعدين بص على القصر العيني الفرنسي، وقالي: «ودا القصر العيني الفرنسي، اللي بناه عبد الناصر، ومنه خرجت خارجة أبويا الله يرحمه»، وفجأة حسيت إن ذكر الأهل ردله الروح شوية.

رجعنا شارع القصر العيني، وبصيت على فأنلته المتبهدة اللي واضح إن عمرها بيزيد على عشرات السنين، وقالي وهوّ بيضحك: «دي فأنلة مانتيجوه فرنساوي، اشتريتها من أكثر من عشرين سنة، بس تتغسل وتطلع من الغسالة تتلبس بدون مكوة، وتبقى كأنها جديدة، بس دي ما تلاقيهاش هنا، أنا اشتريتها من بره، أصلي كنت باشتغل مهندس ميكانيكي في الكويت، وكنت ساكن في منطقة الشرق على البحر مع الإيرانيين، ودول ناس يحبوا الحياة ويحبوا الفرح، ولولا صدام أنا ما كنتش نزلت مصر، لكن بعد ما صدام خرج كان سايب كل خمسة كيلو لغم، وربنا نجاني من الموت خمس مرات، فعرفت إنه بعثلي رسالة أنزل فنزلت».

استغربت إن مهندس ميكانيكي ينزل من الكويت يشتغل سواق تاكسي، قالي: «أنا اشتريت التاكسي دا مزاج عشان ما التحبشش في البيت وتقعد مراتي تتخانق معايا لغاية ما أتحنق، فبقيت بانزل من البيت الصبح أشتغل لغاية الظهر، وأركن جنب الجامع أصلي الظهر وأنام في الجامع في التكييف لغاية العصر، وبعدين أروح أتغدى وأنزل أشتغل، وأروح بعد كدا أتعشى وأنام».

كنا قربنا نوصل للمكان اللي رايحه في وسط البلد، ولما قتلته يمينك، قالي: «ياه.. أنا تعبان فعلاً.. أنا لازم أروح الجامع أنام في التكييف». حاسبته وودعته ومشيت.

٣

كان عندي مشوار الصبح، وقررت أركب أول تاكسي يعدي، وكنت واخذ معايا الكاميرا عشان عارف إن اليوم هيكون ممل وممكن أشغل نفسي بإني أبص في الكاميرا وأصور أي حاجة.

المهم لقيت تاكسي سايقه سواق شاب ضئيل الجسم ومبتسم، فقلته: «وسط البلد؟»، قالي: «تحت أمرك»، فطلعت الكاميرا وقعدت ألعب فيها، قالي: «تخيل يا بيه أنا زمان كنت شغال في مزرعة سمك في وادي النطرون، وجم ناس طلبوا مني يصوروا المزرعة، وهُم ماشيين إدوني ميت جنيه. الكلام دا من خمستاشر سنة، يعني الميت جنيه دي كانت بمقام ألف جنيه دلوقت»، فضحكت وقلت في عقل بالي: «يا ابن الذين، وأنا اللي قلت إنك طيب، أتاريك راسم على ألف جنيه!»، وهوّ ضحك على ضحكي من غير ما

يعرف باضحك على إيه، وكمّل: «أصل أنا لما ما جبش مجموع في إعدادي، وكنت هادخل دبلوم، أبويا قالي الدبلوم زي قلته، إنت تشتغل أحسن، ووداني المزرعة دي، وشوية وبقيت أنا اللي ماسك المزرعة. كان شغلي إني أأكل السمك مرّة الصبح ومرّة آخر النهار، وكان بيجيلنا مورد بيحجب أكل للصبح، ومورد بيحجب أكل آخر النهار. أكل الصبح كان باسكوتات وشوكولاتات منتهية الصلاحية، وأكل آخر النهار كان مربى، كنت أنا اللي باعملها. كنت أركب المركب الصبح أمشي بيها في الحوض وأوزع الأكل على السمك، وكنت باكل برضه معاه بسكوت وشوكولاتات، ما هو إذا السمك ما حصلوش حاجة هيحصلي أنا يعني؟ والسمك دا حلو أوي يا بيه. كنا بنربي بوري وبلطي وشبار، ودول بيعيشوا مع بعض، ما ينفعش مثلاً نربي معاهم قراميط عشان القراميط بتاكل السمك الصغير. أنا لما كنت أرمي الأكل كان السمك يطلع يتنطط على وش الميه، ويبقى فرحان أوي، وأنا كنت أبقي فرحان أنا كمان. أكل بالليل بقى كان مربى أنا اللي باعملها، كان فيه مزرعة فراخ في قليب بتوردلنا ذبل فراخ، وكنت باعبيه في سبع براميل، كل يوم ببرميل، وكنت أرقمهم عشان المربى دي لازم تقعد أسبوع عشان تستوي، كنت أخلطهم بميه كويس، وأفلهم ما اخليش يدخلهم هوا خالص، وبعد أسبوع البرميل يبقى مربى «مربة دود»، وكنت آخذ البرميل أكبه في الميه بالليل بعد ما يعدي عليه أسبوع والمربى تستوي. كان جنب الحوض دا فيه تعبان طويل أوي كان يقف يستناني بالليل، بس كان ربنا هاديه وكان صاحبي، أفق مستنيه لغاية ما يمشي وأنزل في المركب أأكل السمك. وآخر النهار كان في نفس المزرعة دي فيه زراعة: بصل، وبطاطس، كنت أجيب شوية بصل وآخدمهم في أوضتي وأقلبهم في الزيت على النار وأعمل دمعة عشان أعمل فيها سمك، بس ما كانش ينفع أقليه أو أشويه، لأن كان ممنوع علينا ناكل من السمك، ولو قليته أو شويته هيطلعه ريحة، فكنت أجهز الدمعة وأستني الدنيا تليل، وبالليل السمك ما بيكونش شايف، أرمي الشبكة تطلع سمك، فأخذ السمك وأطلع على الأوضة أنضفه وأقطعه وأرميه في الدمعة وآكله، مفيش أكل أطعم منه صدقني. وفضلت كدا لغاية ما في يوم عدت عربية ونزلوا منها ناس معاهم كاميرات، فقالولي: «ممكن نصور مزرعة السمك؟»، فقلت لهم: «اتفضلوا، بس استنوا عشان أخليكو السمك ينط في الميه»، وركبت المركب وقعدت أأكل السمك وأنا فرحان والسمك بيتنطط في الميه، وقعدوا يصوروا وكل ما أقولهم: «كفاية؟»، يقولولي: «لأ، كمل»، لغاية ما خلصت، فقالولي: «إنت منين؟»، قلت لهم: «أساساً أساساً من الصعيد»، فقالولي: «طب عاوزين شاي صعيدي»، فجهزت ركوة النار، وأول ما الميه غليت قمت رميت فيها الشاي وسبته لغاية ما استوى، وصبيته وشربوه واتكيفوا أوي، وادوني ميت جنيه، قلت لهم: «الميت جنيه دي عشاني؟»، فقالولي: «آه عشانك»، فضحكت وكنت طائر من الفرح، وبعدين قالولي: «إنت معاك كام واحد في المزرعة؟»، فقلت لهم: «١٢ واحد»، فادوني ميت جنيه تانية، وقالولي: «روح اشترى فراخ واعزم كل اللي شغالين معاك على الأكل»، ويوميها عملنا حفلة، وقعدنا نشرب شاي ونغني للصبح».

المهم ما حسيتش بالوقت، وما صورتش حاجة لغاية ما وصلت مكان ما أنا رايح، وكنت منبهر بطريقة حكي السواق، لدرجة إني فكرت إن والله لو معايا ألف جنيه لكنت اديتهمله واديتله فوقها جائزة أحسن

ركبت تاكسي أروح وسط البلد. منزل المقطم كان واقف تمامًا لدرجة إني قلت للسواق الشاب إن أحسنلي أنزل أتمشاها، السواق قالي: «لا، كلها ثواني وهتفك. صلاح سالم مش واقف أنا شايفه»، فقلتله: «طيب»، قالي: «تصدق أنا كنت رايح أوصل زباين سجن المنيا، بعد ما وصلنا السجن وقفت أستناهم يخلصوا الزيارة علشان أرجعهم معايا، جه الأمين قالي: «بطاقتك»، وأنا عارف إن ما عياش حاجة، فاديتله البطاقة، قالي: «هنكشف عليها نشوف لو عليك أحكام ونرجعلك»، رجع بعد شوية وقالي: «تعالى معايا»، وخدني رمانى في الحبس، فضلت في الحبس طول النهار، لا باكلم حد ولا حد بيكلمني. بالليل خدوني ودوني للظابط، قالي: «اسمك محمد سعيد أحمد؟»، قلتله: «آه، محمد سعيد أحمد علي»، قالي: «عندي اتنين، واحد فيهم عليه قضية قتل وهربان، والثاني قضية تبديد، إنت مين فيهم؟»، قلتله: «يا بيه، أنا عمري لا قتلت ولا أعرف يعني إيه تبديد، بس إذا كان ولا بد يبقى تبديد، بلاش قتل دي!»، فقالي: «إنت هتهزر؟!»، قلتله: «لا والله ما باهزر، بس البلد كلها اسمها محمد سعيد أحمد. اسم العيلة إيه؟»، فقالي: «الاسم بيطلع ثلاثي». المهم خدوا بصماتي وحبسوني ثلاث أيام، بعد ثلاث أيام لما خرجوني خدت رقم القضية اللي قالولي إنها عليّ، ورحت لمحامي يكشفلي عليها، فجاب صورة منها. قالي: «افتح الدرج كدا»، ففتحت الدرج، فقالي: «اسحب أول ورقة»، فسحبتها، طلعت ورقة قضية التبديد، فقالي: «طلع اسمه رباعي «محمد سعيد أحمد سعيد»، وطلعت ساقطة كمان عشان عدى عليها عشر سنين»، شلت نسخة من القضية معايا عشان لو كشفوا عليّ تاني أوريهم القضية، «اسحب كدا الورقة اللي بعدها»، فسحبتها وطلعت شهادة ميلاد، فقالي: «إنت مواليد ١٩٨٧، والقضية حصلت سنة ٢٠٠٠، يعني إنت كنت في إعدادي»، فقلت أشيل نسخة منها برضه عشان لو وقفوني أقولهم إن ما كانش لي دعوة بالتبديد وأنا في إعدادي».

بصيت في الدرج، لقيت صورة ليه لابس جاكيت جلد أزرق، فقلتله: «أمال الصورة دي إيه؟»، فقالي: «أبويا كان بيشتغل في الكويت في شركة الغانم للإنشاءات الهندسية، في يوم عدى عليهم صاحب الشركة في الموقع ومعاه ابنه، وابن صاحب الشركة كان لابس جاكيت جلد، وأنا كنت طالب من أبويا جاكيت جلد، فلما شاف الجاكيت عجبه، فقال لابن صاحب الشركة: «إنت شاربه مين؟»، فابن صاحب الشركة سأله: «بتسأل ليه؟»، فقال له: «عشان ابني طالب جاكيت جلد، وعاوز أجيله جاكيت زيه»، فابن صاحب الشركة قلع الجاكيت وقاله: «دا هدية مني لابنك، وأنا هاشترى بداله»، أبويا قاله: «طب أدفعلك تمنه»، فابن صاحب الشركة قاله إن تمنه وصل، ومفيش هدية بيتدفع فيها تمن. لما أبويا رجع من السفر، إداني الجاكيت فلبسته ونزلت أدورله على بنظرون في وسط البلد، دخلت محل وبقول لصاحب المحل إني عاوز بنظرون للجاكيت، فقالي: «الجاكيت دا جلد تعبان جوه وبره. تبيعه؟»، وعرض عليّ ثلاثلاف جنيه، كان مبلغ، بس أنا قلت ما ينفعش أبيع هدية جيالي، وفضلت لابس ما باقلعوش. أبويا لما رجع من السفر فتح مزرعة

دواجن، وحت إنفلونزا الطيور، والحكومة أعدمت كل الفراخ، واللي اشتغل بيه في عشر سنين ضاع في سنة، فاشترالي عربية التاكسي دي، وقاللي: «شق طريقك». كانت لما واحدة تركب معايا التاكسي، كانت أول حاجة تعلق عليها هيّ الجاكيت، الجاكيت دا ياما فتح مواضيع. بعد الثورة كنت ماشي في طريقي ووقفوني ثلاث شباب وقالولي: «القطامية؟»، فرحت أوصلهم، وفي الطريق فتحوا عليّ مطاوي وقالولي انزل من العربية، فنزلت، فضلوا يضربوا فيّ بالمطاوي في صدري والجاكيت ما اتقطعش، وهُمّ من خوفهم طلّعوا يجروا. أنا جسمي كله اتشرح بس الجاكيت طلع سليم، بعدها خالي شافه وعجبه، حكيتله حكايته يمكن يسيبه، فقاللي إنه عاوزه برضه، فقلتلته: «ما دام هدية ما يغلاش عليك».

بصيت في الدرج لقيت باسبور، فقلتلته: «طب وشايل الباسبور ليه؟»، فقاللي: «افتحه»، ففتحتته، قاللي: «المهنة مكتوب فيها إيه؟»، قلتلته: «حاصل على بكالوريوس تجارة»، فقاللي: «بالظبط، أنا شايله معايا عشان باغيره عشان أععمل المهنة سواق، واتفقت خلاص إني أشتري عدم ممانعة بألفين دينار عشان أطلع الكويت أدور على شغل هناك سنتين، ألفين دينار دول يعني النهارده مية وتلاتين ألف جنيه، أول ما آخذ عدم الممانعة هابيع العربية دي وأطلع على الكويت، اللي يبقى عنده فرصة يهرب من البلد حتى لو باع اللي وراه واللي قدامه وما يهربش، يبقى ما يلومش إلا نفسه بعدين».

وطلع عنده حق لما قاللي في الأول إن نزلة المقطم مش هتفضل واقفة كثير، والعداد ما حسبش غير خمس دقائق انتظار، فدفعته الأجرة ونزلت.

٥

نزلت من البيت الصبح أقضي شوية مشاوير. أنا ساكن في شارع ١٧ في المقطم، ونادراً ما بتعدي تاكسيات منه، لكن لمحت تاكسي من بعيد داخل من شارع ٤١ متجه لشارع ٩، فناديت: «تاكسي»، فوقف، فقلتلته: «وسط البلد»، وركبت.

سواق التاكسي كان في السبعينيات من العمر، بشعر وشنب بيض، وشكله بيدل على إنه بصحة جيدة، شكله فكروني لو هلة بكاتب كنت أعرفه رحل من فترة بعيدة، وفضلت ذكراه في ذهني بتحضر ما بين وقت والتاني. لفت انتباهي أول ما ركبت إن علم مصر الأخضر أبو ثلاث نجوم كان ملزوق على تابلوه العربية، واستغربت إنه يكون موجود في تاكسي.

قلتلته: «أنا محظوظ إني ألاقى تاكسي أول ما أنزل»، فقاللي: «ليه؟ شارع ١٧ شارع فيه حركة»، فقلتلته: «عادة لازم أطلع على شارع ٩ علشان ألاقى تاكسي»، وسكت وقلت: «المقطم ما عادش زي زمان»، وما ردش، فقلت إنه من النوع الصامت، لكن ما عادش دقيقتين إلا ولقيته يقول: «كل حاجة اتغيرت»، وسكت شوية تاني، قبل ما يقولي: «من كام يوم نزلت أنا وحفيدتي نمشي في شارع ٩، وفجأة سرحت وأنا ماشي وبعدت عن الرصيف، وكان فيه عربية ماشية بسرعة فخبطتني لكن ربنا ستر، كانت سايقاها واحدة نزلت من العربية قلقانة، فقلتلها: «أنا آسف»، فقالتلي: «رجلك حصلها حاجة؟ أنا دكتور، اتفضل معايا أوديك

أقرب مستشفى»، فقلتلها: «حتى لو حصلها حاجة أنا مش هاوافق إنك تعملي حاجة، لأنني أنا اللي غلطان وما كنتش ماشي على الرصيف»، وأصررت إنها تمشي، ورحت البيت عند بنتي، ورفعت البنطلون أبص على رجلي. حفيدتي اللي عندها أربع سنين بتناديني «يا جدو» بس ساعات بتناديني «يا هشام»، قالتلي: «رجلك حصلها حاجة يا هشام؟»، فجت بنتي قلقانة، فحكيتها، فقالتلي: «إنت كمان اعتذرتلها بعد ما خبطتك؟!»، فقلتلها: «آه، اعتذرتلها، لأنني من الجيل اللي اتعلم إنه يعتذر لما يغلط، إنتو لأ، وأنا كنت غلطان لأنني ما كنتش ماشي على الرصيف»، وسكت.

قلتلها: «بس إنت ما كنتش غلطان، لأن البلد ما عايش فيها أرصفة!»، فقالي: «كله بسبب جمال عبد الناصر!»، وبدأ يعدد من وجهة نظره الأسباب اللي وصلت البلد لي هيّ فيه: «إحنا اتربينا على إنا مصريين، وجمال عبد الناصر جه قالنا إنا عرب، لكن إحنا مستعربين مش عرب، العربي دخل مصر مع الفتح الإسلامي، لكن قبل دا وبعد دا إحنا مصريين مش عرب. عبد الناصر قالنا إنا عرب، وتنازل عن السودان سلّة غذاء العالم والامتداد الطبيعي للمملكة المصرية اللي اتربينا على إن اسمها «مملكة مصر والسودان»، وراح يعمل اتحاد مع سوريا اللي ما تربطهاش حدود جغرافية مع مصر، ودخل حرب اليمن، وبعث جيش في كل حتة، فاستنزف موارد البلد! مصر دي كانت بلد عظيمة، دلوقت بقينا بنمد أيدينا نشحت من اللي يسوى واللي ما يسواش!». الراجل بقى فيه في صوته نبرة حزن خلتنني أتضايق.

لكن الشوارع كانت فاضية، ودخلنا النفق وخرجنا منه، قالي: «شايف الفندق دا؟ دا فندق الكوننتنتال، دا كان من أفخم الفنادق، مش في مصر بس، لكن في العالم، ويا ما رؤسا وملوك نزلوا فيه، دلوقت بقى ساكن فيه اللي مش لاقى حتة تأويه». دخلنا شارع «عدلي»، فكمل وهوّ بيص على المحلات: «دا كله كان الفندق، بص بقى إيه، بقى كله محلات». وسط البلد كانت فاضية، وكنا قربنا على شارع «طلعت حرب»، فقالي: «شارع سليمان باشا دا زمان ما كانش حد يقدر يمشي فيه لابس جلابية»، وفجأة بصيت للراجل فاتهيألي إني شفت طربوش أحمر فوق راسه.

وصلني ميدان طلعت حرب، والعداد اللي عادة بيعمل ثلاثين أو خمسة وتلاتين جنيه عمل عشرين، فبقيت عاوز أدفعه زيادة، فقلتلها: «أدفع كام؟»، فقالي: «اللي في العداد»، فدفعته العشرين جنيه ونزلت، فابتسم، واتهيألي إنه رفع طربوشه الأحمر وحياني.

- ١- من غير المُجدي محاولة معرفة أين يقود الطريق. فكّر فقط في الخطوة الأولى، والباقي سيأتي.
- ٢- بدلاً من مقاومة التغيير، استسلم. دع الحياة تكون معك، وليس ضدك. إذا كنت تعتقد أن حياتك سوف تنقلب رأساً على عقب، فلا تقلق، إذ ما أدراك أن ما هو أعلى أفضل مما هو أسفل.
- ٣- هذا العالم مثله كمثل جبل. صدائك يعتمد عليك. إذا كنت تصرخ بأشياء جيدة، فإن العالم سيردها إليك. إذا كنت تصرخ بأشياء سيئة، فإن العالم سيردها إليك. حتى لو قال شخص ما عنك شيئاً سيئاً، تحدث جيداً عنه. غير قلبك لتغير العالم.
- ٤- الكون كيان فريد من نوعه. كل شيء وكل أحد مترابطون معاً بسلاسل غير مرئية. لا تكسر قلب أي شخص، ولا تنظر بتعالٍ إلى من هو أضعف منك، فحزن إنسان في الجانب الآخر من العالم يمكن أن يجعل العالم بأسره يعاني، وسعادة إنسان يمكن أن تجعل العالم كله يبتسم.
- ٥- حياة بلا حب هي حياة مهكرة. «هل يجب أن أبحث عن الحب الروحي، أم المادي، أم الجسدي؟»، لا تسأل نفسك هذا السؤال. الحب لا يحتاج إلى أي اسم أو فئة أو تعريف. الحب هو العالم نفسه، إما أن تكون في مركزه، أو تكون خارجه وتتوق إليه.
- ٦- كيمياء العقل تختلف عن كيمياء الحب: العقل حذر، ومتشكك، ويتقدم شيئاً فشيئاً، وينصح: «كن حذراً، واحم نفسك». في حين أن الحب يقول: «دع نفسك، واذهب!». العقل قوي، لا يسقط أبداً. في حين أن الحب يؤلم نفسه، ويسقط في الأنقاض، ولكن أليس في الأنقاض في الأغلب نجد الكنوز؟ كذلك القلب المكسور يخفي بداخله الكثير من الكنوز.
- ٧- الماضي تأويل، والمستقبل وهم. العالم لا يعبر من خلال الوقت كما لو كان خطأ مستقيماً، منتقلاً من الماضي إلى المستقبل. بدلاً من ذلك فإن الوقت يتحرك من خلالنا وفي داخلنا، في لولب لا نهاية لها. الأبدية لا تعني وقتاً لانهائياً، ولكن ببساطة تعني اللاوقت. إذا كنت ترغب في التعرف على الإضاءة الأبدية، أخرج الماضي والمستقبل من عقلك، وابق في الوقت الحاضر.
- ٨- عندما يحاول كل أحد أن يكون شيئاً، كن لا شيء، وتماد مع الفراغ.
- ٩- تعلم بالقراءة، وافهم بالحب.
- ١٠- الحب سفر. جميع المسافرين سيتغيرون، سواء أرادوا أم لا. لا يمكن لأحد أن يسافر إلى الحب ويظل على حاله.

وأنا في العشرينيات كنت شاب مش مستقر، وكانت أكثر شقة باسكن فيها ما بتطولش عن شهرين، إما لعدم مقدرتي على دفع الإيجار، وإما لسوء السلوك. وكان صعب أتخيل إن فيه واحدة ممكن تحب شاب في ظروف، لكن في يوم وأنا باشرب قهوة في ماكدونالدز، شفت بنت وعجبتني، وقررت إنني أكلمها، ورحت قربت منها، ولما جيت أكلمها نسيت كنت هاقول إيه، فقلت: «أنا...»، وسكت، وما عرفتش أكمل أقول إيه، فقلت: «أنا متأسف»، وبكدا على الأقل كونت جملة مفيدة. ولسه هاتدور وأمشي قالتلي: «لأ، ما تتأسفش»، فبصيت ناحيتها فقالتلي: «أنا عارفة إنت كنت عاوز تقول إيه»، فحمدت ربنا إنها عرفت اللي ما كنتش أعرفه، وقلت إنني لازم أكافئها وأجيلها وردة، وفكر إنني قتلها تستناني لغاية ما أرجع، ولفيت على كل أكشاك الورد في وسط البلد في خمس دقائق، وكانوا كلهم لسه قافلين، فاشتريتها شوكولاتة، ورحت وكنت متخيل إنها ممكن تكون مشيت، لكن لقيتها لسه واقفة، واديتها الشوكولاتة، فقالتلي: «الله، دي عشاني؟! أنا باحب الشوكولاتة دي جداً». واتخيلت وقتها إن من كتر الفرحة اللي ظهرت على وشها إنها كانت ممكن تبوسني، لكن بسبب إننا كنا في الشارع ما باستنيش، ولأن الفلوس اللي اشترت بيها الشوكولاتة كانت آخر فلوس في جيبي، عزمتهأ نتمشى على الكورنيش، لكن العيال اللي بتبيع كازوزة على الكورنيش زهقونا، وكل ما نيحي نقعد ييجوا يحاولوا يخلونا نشرب حاجة، فنسيب المكان ونكمل مشي، وكل شوية أبص على جزمتهأ الإسبور المريحة في المشي، وأحس إن رجلي بتتقطع بسبب جزمتهأ الجلد المتينة، لكن خفيت ألمي لغاية ما قربنا من المعادي، فقالتلي: «أنا قربت من البيت، ولازم أروح». حاولت أفنعها نكمل مشي شوية كمان، لكن أصرت تمشي، وركبت تاكسي وسابتنني واقف على الكورنيش، ورجعت المسافة كلها مشي، وأنا عارف إنني لو اترددت لحظة ووقفت يمكن ما كملش مشوار الرجوع، فاستحملت وفضلت ماشي لغاية ما رحنت الشقة اللي كنت يا دوب بادفع إيجارها ولسه ما اطرדתش منها، وحطيت رجلي المبرقة في ميه سخنة بملح، وافتكرت إنني قريت في مجلة علمية إن فيه نوع من السمك بياكل الجلد الميت، واتمنيت لو كان عندي سمك من داء، ونمت من التعب على الكرسي، فحلمت إن السمك بياكل الجلد الميت في رجلي، وإن أكله للجلد كان بيسبب في إحساس بالزغزغة، بيخليني أضحك، فضحكت في الحلم لحد ما صحيت.

لسبب من الأسباب السابق ذكرها، وبدون دخول في التفاصيل، اطردت من السكن، وكانت أكبر مشكلة بتواجهني بعد الطرد هي إن ما بقاش فيه تلفون، فبقيت أنا اللي باتصل، وفضلنا نتقابل كل ما يبقى ممكن، وغيرنا كل الكورنيشات، لغاية ما بدأت تعيط كل ما نتقابل. وفي يوم واحنا على الكورنيش في الزمالك، واحنا قاعدين بتأمل الناحية الثانية من النيل، قالتلي فجأة وبدون مقدمات: «أنا عاوزة أمشي»،

وقامت عشان تمشي وبصت الناحية الثانية، فمسكت إيديها وقتلتها: «لأ، ما تمشيش، ووريني وشك». ورتني وشها، فشفت الدمعتين على خدها، فطلعت منديل ورق من جيبي، ومسحت الدمعتين، فقالتلي: «على فكرة إنت حنين أوي»، وخذت المنديل مني، ومشيت، فمشيت وراها، وهزرت معاها، وقتلتها: «كدا تطمعي في المنديل وتاخديه وتمشي»، فضحكت، فقتلتها: «ما ينفعش أسيبك تروحي زعلانة»، فقالتلي: «أنا مش زعلانة، بس محتاجة أكون لوحدي»، وأنا قتلتها: «مش هينفع أسيبك تمشي إلا لما تقوليلي مالك»، فقالتلي: «مفيش حاجة، بس حاسة إني زعلانة شوية»، فقتلتها: «وأنا مش هاسيبك تروحي إلا لما الزعل يروح»، ومسكت إيديها، ورجعنا نفس المسافة اللي كنا مشيناها من تاني، ووقتها حسيت إن الشوارع بقت عاملة زي خشبة مسرح بتضيق بينا، وكل ما نمشي لآخرها نرجع تاني لأولها. بعد شوية هديت، فقتلتها: «عاوز أعرف فيه إيه!»، فقالتلي: «عارف...»، وبعدين سكتت وما قالتش، وبدل ما تقول عيظت وقالتلي: «لو بتعزني سييني لوحدي»، فقتلتها: «لو دا هيرجحك هاسيبك»، ومشيت، ولما مشيت نفسي صعبت عليّ وعينيّ دمعت، فلقيتها جاية تمشي ورايا، وقالتلي: «مالك؟»، فقتلتها: «مليش»، فقرصتني في كتفي، وقالتلي: «قلي، ما تبقاش سخيّف»، وخذتني من إيدي، ورجعنا نفس المسافة من تاني، وقالتلي: «إيه اللي مزعلك؟»، فقتلتها: «مفيش، مش إنتي كنتي عاوزة تمشي؟»، فقالتلي: «كنت عاوزة أمشي، بس دلوقت مش عاوزة». بصيت لوشها، وبعدين بصيت لإيديها، والإيديين قربوا لغاية ما اتشبكوا في بعض، وبعدين بصينا ناحية الكورنيش من الناحية الثانية، وكانت الشمس بتغرب، والمنظر كان جميل.

٣

بعد شوية، لقت هيّ شغل في شركة مالتني ناشونال، وأنا فضلت زي ما أنا محلك سر، وبدأت فترة مختلفة من حياتنا، كنا بنتقابل فيها في كافيها وسط البلد اللي كان بيتقابل فيها المثقفين، وكنت أبقى مستني مكافأة شغل بالقطعة عشان أكلها أعزمها، وفي يوم قبضت مكافأة نشر قصة ثلاثين جنيه، وفرحت وكلمتها، واتفقنا نتقابل بعد شغلها، واتفقنا، وبصيت على المنيو واخترت أقل حاجة، وهيّ قالت إنها ما اتغدتش، وطلبت عصير وساندويتش وطبق سلطة، وعرفت إن الميزانية خرمت والعزومة باظت.

ودخل صديق كان ربنا فاتحها عليه، وبصلها وبعدين بصلي، وقالي: «إنت لسه زي ما انت بتتصرم على القهاوي!»، فقتله إني فرحتله لما عرفت إنه بقى شريك في شركة، فقالي: «ابقى عدي علينا»، ومشي. قعدنا نتكلم، وسألتني هالاقى شغل إمتي، فقتلتها إني مش عارف، وبعد شوية دخلت الحمام وخرجت، لقيتها طلبت الحساب وبتدفع، فجيت أسحب منها ورقة الحساب، فشدتها مني وقالتلي: «قلبك أبيض». اعتبرها عزومة إني لقيت شغل، وإنت لما تلاقي شغل تردهالي»، وحطت الفلوس وهيّ مدارية على الحساب عشان ما أخذش بالي دفعت كام.

وخرجنا نتمشى في الشارع، وحسيت فجأة إن عيني زغللت من أنوار الشوارع، ووقفت معاها أوقفلها تاكسي، فقالتلي وهيّ بتضغط على إيدي: «ما تقلقنيش عليك. اتفقنا؟»، فقتلتها: «اتفقنا»، ولما وقف

التاكسي، وقفنا نتكلم، فالسواق قالها: «يلاً يا آنسة عشان الشارع ما يقفش!»، فركبت، وفجأة ركبت معها، فابتسمت، وفي نص الطريق نزلت عشان أعرف أرجع، وبصيت على التاكسي، ويوميها عرفت إن مصايرنا كانت بتبعد مش بس التاكسي.

٤

بعدها ما بقيناش نتقابل زي الأول، وشوية بشوية بديت أبعد، لغاية ما في يوم وأنا قاعد على القهوة، عدت صديقة مشتركة، وسألني عنها، فقلت لها إني بقالي فترة ما شفتهاش، سألتني عن رقم تلفوني فقلت لها: «ما عنديش»، فسألني: «ساكن فين؟»، فقلت لها: «مش ساكن»، فقالت لي إنها هتحاول تقابلها، وتاخذ مني ميعاد تاني نتقابل ونتكلم تاني، فقلت لها إني ما باعرفش آخذ مواعيد وحياتي ماشية بالصدفة. واتقابلنا تاني صدفة، فقالت لي إنها اتكلمت معها وإنها عاوزاني أكلمها، فطلبت منها رقم تلفونها لأن الورقة اللي كانت فيها أرقام التلفونات ضاعت، فادتني النمرة، فكلمتها، فقالت لي إني واحشها، وقتلتها إنها واحشاني، واتفقنا نتقابل، واتقابلنا، وكانت مبسوفة. ولما جيت أكلمها من تاني لقيتها بتعيط، فسألتها بتعيط ليه، فقالت لي: «أعتقد إن مش من العدل توصلني وقت ما إنت عاوز، وأنا ما اعرفش أوصلك!»، وقفلت السكة، فاتصلت بيها تاني فما ردتش، واتصلت بيها تالت، فقالت لي أتصل بيها بعد خمس دقائق، فاتصلت بيها بعد خمس دقائق، فما ردتش، وكان فيه ناس تانية واقفة عند الكابينة عاوزة تتصل، فسبت التلفون ومشيت.

٥

أخيراً بعد معاناة لقيت شغل بمرتب ميتين جنيه في الشهر، وقررت أستغل الفرصة التاريخية دي وأأجر شقة، واتشاركت في شقة فيها تلفون مع مهندس كان بيشتغل في شركة بترول ويكتب قصة، وكل واحد كان بيدفع ١٧٥ جنيه. الشقة كانت في شارع قسم مصر القديمة، وكانت في الدور السادس بدون أسانسير، بس كانت بتطل على النيل، والصبح بدري قبل ما يهجم عادم العربيات والمصانع على المدينة كان ممكن رؤية الأهرامات بوضوح. ميزة تانية للشقة إنها كانت على مسافة قريبة من محطة مترو مار جرجس، وبقى صديقي بيسميني «عبد المترو» لأنني كنت باركب المترو كل يوم. ما كانش في مراية في الشقة، فكنت أقف قصاد الباب، وأستني إن المترو يدخل النفق عشان يبقى إزازه عامل زي المراية بسبب انعكاس الإضاءة الداخلية للمترو عليه، وأقف أوضب نفسي قبل ما أروح الشغل. وبمرور الوقت اتعلمت إزاي أركب المترو بدون تذكرة، وأقف ورا أي حد وأعدي معاه، وبديت بعد شوية أحس إني بقيت الرجل الخفي، لأن كان ممكن أعدي بنفس الطريقة قدام رجال الشرطة، ومحدش يوقفني.

وقتها بدأت تظهر في حياتي من تاني، وكانت ترورني الصبح قبل ما تروح الشغل، وتحيب معاه لبن وجبن وعيش وشاي ونسكافيه وسكر عشان نفطر سوا، وتحط الباقي في التلاجة، وتقولي: «أهم حاجة تفطر قبل ما تنزل الصبح». وكنا نقف نشرب النسكافيه ورا الشباك الألوميتال واحنا بنتفرج على النيل والأهرامات،

وكانت جابت عربية، فبقيت أستغل إنها جاية وأنزل معاها وسط البلد، والظاهر شغلها في المالتى ناشونال أثر عليها، فبقت بتسمع أغاني شعبية، وكانت أغنيتها المفضلة «اختارك حل» لطارق الشيخ.

٦

في الصيف اقترحت نسافر بره القاهرة، وسافرنا مدينة ساحلية قضينا يومين فيها، وتالت يوم كان لازم نرجع، وكان يوم جمعة. ركبنا تاكسي لمحطة الأتوبيس، وكانت لابسة بنطلون ترينج وتيشيرت، ولما وصلنا المحطة كانت مليانة عساكر، واقفين في طابور تذاكر طويل، وحسيت إني الوحيد اللي واقف مش لابس الزي الأخضر، وحسيت كأننا جينا بالغلط في بلد فيها حرب. واقترح عسكري إنها هي اللي تشتري التذاكر لأن طابور الستات فاضي. وفي الأتوبيس استسلمت للنوم زي الملايكة، وأنا قعدت أدقق في ملاحظها، وطلعت الكاميرا أصورها، وأنا حاسس إن دي ممكن تكون من المرات الأخيرة اللي هاشوفها فيها.

٧

بعد أسبوع من الرجوع من البحر، كلمتني وقالتي إن فيه عرض موسيقي، وإنها عزماني أحضره، وإنها كتبتلي جواب عاوزاني أقراه. اتفقنا نتقابل الأول في كافيه، ونروح من هناك على العرض. لما وصلنا الكافيه إدتني الجواب أقراه، وقالتي أطلبها «لاتيه»، وسابتنى ودخلت الحمام، وأنا فتحت الجواب أقراه:

أكتب إليك هذه المرة لأخبرك بقرارٍ توصلت إليه أخيرًا، ويجب أن أقول بأنك قد ساهمت في اتخاذي لهذا القرار، بعدم تدخلك لحسم بعض الأشياء العملية التي تخص علاقتنا.

أنت تعرف أنني كنت سعيدة دائمًا بهذه العلاقة، وبوجود أحدنا إلى جوار الآخر - ولو بشكل رمزي - ولكن في بعض اللحظات كان لا بد أن أقلق، تحديدًا حينما تكون أنت مستحوذًا بأفكار انتكاسية، ومتوترًا بسبب أو بدون، وفي حالة تألم ولوعة مستبطنين، بحيث ولا أنا أستطيع أن أتعامل معك لإخراج ما بداخلك.

الآن، أشعر أنا بالحزن والمرارة واللوعة، وقد قررت بمفردتي قرارًا سيؤثر على السعادة التي أنا لها لقربك مني، لأعود إلى حياتي الهادئة، بعد أن كنت أنت لي فيها كالدوامة المهولة التي تبتلعني من نفسي ومن كل شيء من حولي.

علينا أن نجرّب مرّة أخرى ألا نتقابل لسنة أو أكثر، ولن نتحدث عن أي إجراءات عملية يلتزم أحد منا بفعلها، ولكن على وعد بأن نتقابل فيها بعد حين يحدّد موعد اللقاء، ونحن ممثلثون بالفرح، كما لو كنا قد تصافحنا في اليوم السابق، وليس بعتاب على البعاد الذي كان.

تذكر الأشياء الجميلة التي عشناها معًا، ولا تتوقف أمام الأشياء الغير لطيفة التي مرت بنا، ولا تنغلق على نفسك، لأنه توجد في الحياة أشياء جميلة تستحق أن تفكر فيها وأنت تبسّم، وهي الأشياء البسيطة التي قد لا نقرّ أحيانًا بوجودها، ولكنها توجد في الواقع.

تحلّ عن موقف الشاعر الملعون من الحياة، وعشها بطولها وعرضها. لا أقول لك أن تنساني، ولكن فكر فيّ وفي الآخرين أيضًا، وابحث عن أشخاص مثلي ومثلك، بل ومختلفين عنا أيضًا، ابحث فيهم عن ذلك الجزء القيم والنادر الذي لا يرى بالعين المجردة من النظرة الأولى، ولكنه يُكتشف بالألفة والمعاشرة.

اخرج من الأفكار التي تحاصرک، وعش في الحاضر، فحياتنا السابقة - بحلوها ومرها - قد عشناها، ولا تظل جالسًا فوق الصخر في البحر بين الأمواج والعواصف - حيث جلسنا ولعبنا من قبل - مفكرًا بحزن فيما مضى من الأيام، وما فعلته، وما لم تستطع فعله فيها. وإذا أردت أن تذهب إلى نفس المكان، فتذكر أن تغلق من أجلك ومن أجلي تلك الصخرة التي تسجن في داخلها صرختك.

حينما تعارفنا لم تكن حياتي لتمتلئ سوى بالحيرة واللوعة، والآن بعد أن أصبحت أكثر ثراء، أشعر كأنك تريد أن تعيدها إلى

ما كانت عليه، وأنا لن أرضى بالرجوع إلى الورا، ولن أرضى أن ترجع أنت أيضًا إلى الورا، لأنك تعرف أنني أريدك سابقًا لي في خطوك، ولكن أنت من بيده أن يفعل ذلك، أو بيده أن يتخاذل. قد يكون العالم قد تغير، ولكنني لا أريده أن يغيرنا، ولا أن يغير ما بيننا، ولذلك أمنحك الوقت لتقرر بنفسك. ألم تكن بحاجة لوقت؟ ها هو معك، فأرني ماذا ستفعل به. وداعًا.

بخلاف المضمون الصادم للجواب، ما كانش فيه إهانة لي أكثر من إنه يكون مكتوب بعربية فصحي، لا بتوائم مع طريقة حياتنا ولا طريقة تفكيرنا، لكن قررت أتعامل مع لغة الجواب على إنها غلطة أسلوبية. بعد شوية رجعت من الحمام، ومحاولاتها إنها تحط ميكياج على وشها ما قدرتش تمسح أثر الدموع اللي كانت نزلت على خدودها. بصيت لعينيها المحمرة، وقتلتها: «مالك؟»، فقالتلي: «مفيش. عندي حساسية في عيني»، وسألتني إذا كنت قرئت الجواب ورأيت فيه، فقلت لها إنه مكتوب بلغة جميلة جدًا، فقالتلي: «ما لقيتش حاجة في الجواب تهتم بيها غير اللغة؟!»، فقلت لها إني اتأثرت لما قرئته، لكن بما إنها قررت، فما اقدرش أفق في طريق سعادتها.

واتفرجنا على الحفلة وخرجنا، وكان القمر مكتمل والسما جميلة، واتفقنا نكون أصدقاء، وودعتها وكل حد مشي في طريق.

وزي البطل المنهزم في الروايات، خدت الجواب ونزلت وسط البلد أتجرع مرارة الهزيمة في البارات، وكل الكلمات السخيفة في الجواب حملت طاقة شعورية غريبة حطنتني على حافة الانهيار. وركبت المترو الصبح، وكان لسه فاضي، فرجعت فيه كل اللي شربته قبل ما يبدأ الركاب يزحموا المترو، وحسيت بالذنب، بس وقتها كان كل همي إني أروح. أول ما روحت استحमित بميه سخنة، وحطيت رجلي في ميه بملح، وحلمت إن السمك كان بياكل جلدي، وحسيت معاه بالتآكل المؤلم لروحي، فبكيت.

السؤال

السؤال مش هوّ: كام مرّة قلبك ممكن ينكسر؟
السؤال: كام مرّة هيتصلح ويرجع يشتغل تاني؟

من الناس اللي أثروا في حياتي أول ما وصلت القاهرة عم محمود السمسار، اللي قابلته أول مرّة على قهوة قريبة من نفق الجيزة، ومن يومها بقيت أروحله كل ما أبقي بادور على سكن. كان راجل طيب من الصعيد فوق الستين، وكان ممكن يتحرك معايا في أي وقت ونركب ميكروباصات ونمشي سوا لغاية ما يلاقي المكان اللي يناسبني.

بعد ما اتخرجت كانت الدنيا مقفلة بياناها في وشي، لغاية ما لقيت شغلانة بميتين جنيه في شركة إنتاج سينما في وسط البلد، وقررت إني لازم أستقر وألاقي سكن، وإني أقدر أوفر ميت جنيه للسكن، والميت جنيه الثانية أخليها للمواصلات والأكل.

رحت لعم محمود على القهوة، فقالي: «اقعد اشرب شاي»، فقعدت، وهوّ قعد يكمل الشيشة.

سألني أسئلة بسيطة عشان يعرف نروح فين: «عاوز تدفع كام؟»، «آخري ميت جنيه»، «ميت جنيه ما يجيوش غير أوضة!»، «مش مهم. المهم مكان أبات فيه».

خلص شيشته وحاسب ومشينا.

ركبنا عربية أجرة فولكس سيرفيس، ونزلنا عند محافظة الجيزة، ودخلنا يمين من عند بيع الجرايد. واحنا ماشيين حكالي عم محمود إن المكان اللي رايحينه اسمه «البرج»، لأن زمان كان لما بينوا العمارات كانوا بيعملوا أوض للخدم اللي بيشتغلوا في كل شقة: أوض شرحة بحمام، بس بعد كدا الدنيا اتغيرت وما بقاش فيه ناس ميسورة زي زمان فبقوا بيأجروها.

فضلنا ماشيين لغاية ما وصلنا عمارة قديمة جميلة وضخمة، وفيها مدخل على الجنب بيوصل على برج من أوضة واحدة في كل دور ملحق بالعمارة.

دخل عم محمود وجاب مالك العمارة، اللي شرحلي إن فيه أوضة واحدة فاضية في الدور الأرضي. ما اعترضتش، فدخل يفرجني الأوضة. كانت ضلمة ومفيش نور، بس شرحلي المالك محتويات الأوضة: فيه سريرين ودولاب وطرابيزة وكرسي وتلاجة وبوتاجاز صغير وحمام، وفيه شباك بيطل على المنور.

وافقت بدون ما أفكر، ومضيت العقد ودفعت شهر مقدم، وطلبت مهلة أسبوعين لغاية ما أقدر أوفر التأمين، والمالك وافق. راضيت عم محمود، ورحت الأوضة فتحت الباب ونمت من التعب، وما صحيتش إلا ثاني يوم الظهر. كانت الأوضة ضلمة، ففتحت الشباك فلقيت عيال صغيرة بتلعب في ممر الدور الأرضي، وكانت الفيران بتتحرك بحرية، وكل بلكونات شقق الدور الأرضي بتطل على أوضتي، فواربت الشباك، ومن خيوط النور القليلة اللي داخله الأوضة شفت إن التراب كان مغطي كل الأوضة، والجدران مشققة، والبوية بتسقط من الرطوبة. رحت الحمام أغسل وشي، وأول ما خلصت كان الحوض اتسد. كانت أرضية الأوضة متغطية موكيت أخضر حتى الحمام.

رحت فتحت باب التلاجة وحطيت الفيشة فما اشتغلتش. طلعت من شنطتي الشاي والسكر، ودورت

على البوتاجاز فما لقيتشر غير أسطوانة غاز صغيرة بعين واحدة، وطلعت فاضية.
طلعت من الأوضة ورحت ناحية العمارة عشان أتكلم مع المالك، فوقفني واحد على البوابة وقالني: «أنا
إسحاق البواب، أي خدمة؟». كان إسحاق لابس هدوم متبهدة، وشعره متوزع على صلته الكبيرة،
ولابس نضارة بعدسات سميكة منها عدسة مكسورة. قلت لإسحاق: «أنا الساكن الجديد»، سألني: «عاوز
حاجة؟»، فقلتله إني عاوز أقابل المالك، فقالني إنه بييجي من الشغل الساعة اتنين ونص.

طلبت من إسحاق إنه يبلغني لما المالك ييجي، ورحت قعدت على قهوة في فيصل، ورحت قبل ميعاد
رجوع المالك. لما رجعت الأوضة كملت استكشاف، ففتحت الدولاب اللي كان مبني جوه الحيطه، ولقيت
جواه ستاير قديمة وجرايد صفرا وقطع أركيت خشب ملزوق عليها صور قديمة لستات عريانة.
كان فيه في الأوضة مرايتين بيضاوي محطوطين قصاد بعض، كل ما أبص في واحدة أشوف ضهري
منعكس عليها، وكان في الأوضة نجفة بلاستيك قديمة وكريسي خشب قديم وطرابيزة صاج.

الساعة بقت ثلاثة وإسحاق ما جاش، فخرجت رحته وسألته إذا كان المالك جه، فقالني إنه جه بس هو
نسي يبلغني. طلعت شقة المالك، وخبطت على الباب فخرجلي، وواضح إنه كان بيتغدى، فقلتله إن الأوضة
مفيهاش لمض، فقالني إدي لإسحاق فلوس يشتري لمض، قتلته إنها وسخة، فقالني إدي لإسحاق فلوس
ينضفها، فقلتله إن الحوض مسدود، فقالني إن إسحاق يعرف يصلحه، وبعدين قتلته إن التلاجة ما
بتشتغلش، فقالني إن ماتورها محروق وما ينفعش تتصلح.

وأنا نازل لقيت إسحاق، ووقف يسألني تاني لو محتاج حاجة فاديتله خمسة جنيه يشتري أربع لمض،
وطلبت منه مقشة.

ركبت اللمض: واحدة قدام الباب، وواحدة على باب الحمام، وواحدة في الحمام، وواحدة في النجفة
البلاستيك. وجابلي إسحاق المقشة وقالني: «لما تخلص كنس هاتعلي تاني عشان باكنس بيها السلم ومدخل
العمارة». بدت أكنس، فاكشفت إن صعب أتخلص من التراب لأنه ماسك في الموكيت، لقيت عنكبوت على
الحيطة فحاولت أشيله بالمقشة فسقط الجير على الأرض، لكن بعد شوية مجهود قدرت أنضف الأوضة،
وبدأت أرتب حاجتي.

بعد التنضيف دخلت الحمام أستحمي، ورغم إن الميه كانت ساقعة، لكن حسيت إني محتاجها بعد
المجهود. وبعد ما استحमित قررت أرفع حته الموكيت اللي في الحمام عشان أحطها في المنور تنشف. أول ما
رفعت حته الموكيت لقيت ديدان طويلة ما صدقت إني رفعت الغطا عنها وبدأت تتحرك، رميت عليها حته
الموكيت تاني، لكنها كملت حركة وبدأت تزحف على الأوضة. كان فيها شبه من ديدان أم أربعة وأربعين.
بدأت معركة مع الديدان، وطلعت بسرعة ورق الجرايد من الدولاب، وبقيت أرمي ورق الجرايد عليها
وأضرب فوقها بالمقشة، لكن المفاجأة كانت إن الديدان ما بتموتش، لكن بتتحرك كأجزاء، وبدأت تزحف
أكثر ناحيتي، فطلعت فوق السرير وأنا مش عارف أفتح عيني من الرعب.

بعد شوية لقيت الباب بيخبط، فاتحركت وأنا باحاول أتفادي الديدان، لغاية ما فتحت الباب، فلقيت

إسحاق، سألني: «ظهر ولك؟»، سألته: «مين؟»، «الديدان».

إدبت لإسحاق عشرة جنيه بعد ما اتفقت معاه إني أخرج وأرجع ما لاقيش ديدان في الأوضة.
نزلت وسط البلد، وهناك قابلت صديق كاتب سألني: «إنت ساكن اليومين دول؟»، فقلتله إني يا دوب
سكنت، فقالي: «على بركة الله، أنا ها جي أسكن معاك».

في الطريق سألت صديقي إذا كان بيشتغل فقالي: «لأ»، فقلتله إنه إن شاء الله هيلقي شغل، فقالي إنه مش
عاوز يشتغل، وقالي إنه زمان أيام عصر النهضة كانت الأرستقراطية بتصرف على الفنانين، وإنه كان نفسه
يعيش أيام عصر النهضة، فقلتله إن زما مفيهوش أرستقراطية، ومحدث بيدي حاجة لحد بيلاش.
لما رحنا الأوضة بدأ صديقي يبين إنه متضايق: «الأوضة حر!»، وفتح الشباك. نبهته ياخذ باله ما يسيبش
الشباك مفتوح عشان الفيران ما تدخلش الأوضة.

بص صديقي للأوضة بقرف وقالي: «هو دا المكان اللي إنت عايش فيه؟! إحنا وصل بينا الحال للدرجة
دي؟!»، واختار سرير لنفسه، وسابلي السرير الثاني أنام عليه.
التعايش مع إنسان تاني بيخلي الحياة عادةً أبسط، وبدينا نعرف نجيب فول وطعمية منين، وعرفنا مكان
تلاجة ميه كولدير بقينا نروح نملا منها ميه ساقعة.

بقيت أروح الشغل وأرجع ألقى صديقي زي ما هو، وقالي إنه قرر يكتب رواية، وبقي كل يوم يحكي لي
الرواية، وأنا كنت باقى مش عاوز أسمع، فيقولي إني لازم أسمع عشان الرواية هتكتمل وهو بيحكى هالي،
وبكدا أكون أنا مشارك في كتابتها وقارئها الأول.

وقتها أدركت إني مش بس لازم أهرب من الأوضة، لكن كمان لازم أهرب من صديقي. وكنا كسرنا مراية
من المراتين، وحرقنا النجفة البلاستيك اللي اتضح إنها بتسخن من النور. قلت لصديقي إننا هنمشي، ولميت
حاجتي، وخرجت سبت المفاتيح لإسحاق، وقتله يسلمها للمالك، وبكدا هربت من دفع التأمين وسكنت
شهر بالفلوس اللي دفعتها، ونزلت على الجيزة أدور على عم محمود السمسار، فما لقيتوش قاعد في مكانه،
فقعدت أشرب شاي عشان أستناه، لكنه ما جاش، ولما الوقت اتأخر سألت عليه القهوجي، فقالي: «عم
محمود تعيش إنت»، وفجأة حسيت إن فيه فترة من حياتي انتهت بموت عم محمود، وما بقيتش عارف مين
هياقيلي سكن بعد ما مات.

كنت باشرب القهوة في مكاني المفضل في سان فرانسيسكو: متحف الفن الحديث بالشارع الثالث في المدينة. كنت باحب المبنى الإزاز للمتحف، وبقي مكان أليف بالنسبالي. كانت قاعدة هناك، بتكتب في كراسة ورقها ملون، وكان كل إزاز المتحف عامل نفسه مراية ليها. بصيتلها فشافتني، لكن كملت كتابة.

كان فيه ما بينا طراييزة واحدة، وفكرت أروح أقولها إن وجودها زود تقديري لعمارة المبنى، لكني أخرجت إني أقتحم خصوصية اللحظة اللي كانت عايشاها وهي بتكتب بقلمها الحبر على الورق. طلعت كاميرتي الفوتوغرافيا، كنت حابب أصورها، لكن حد فجأة قعد على الطراييزة اللي ما بينا وحجب عني الرؤية. لعنته في سري، واتوسلت إليه إنه يقوم بشفرة سرية للتخاطب عن بعد، لكنه ما قامش، ولما جه يقوم كانت هي كمان بتجمع حاجاتها وماشية.

جمعت كل الشجاعة اللي عندي وقتلتها ترجع مكانها، لأني عاوز أصور انعكاس صورتها على إزاز المتحف، ما مانعتش والكاميرا كانت فرحانة وهي بتركز عليها. بعد ما صورت سألتها إن كان ممكن أقعد معاها دقيقة واحدة، فقالت: «بس مش أكثر من دقيقة». قالتلي إن اسمها «إليزابيث»، وإني ممكن أناديلها «ليز».

الدقيقة بقت ساعات، ومشينا مع بعض في شارع كولومبوس من أوله لآخره، كأني باكتشف أمريكا من جديد على خطوات كريستوفر كولومبوس اللي الشارع على اسمه، وعلى خطوات شعراء جيل البيت. وقتلتها إني باكتب، فقالتلي إنها عاوزاني أعرفها كل حاجة عن الكتابة، وقعدنا في الآخر في مقهى براغ، وبعدين اتفقنا نتقابل في اليوم اللي بعده.

في اليوم دا عرفت يعني إيه مزيكا. كانت المزيكا في كل مكان في المدينة، في كل ركن، وكل حارة.

كنا تعبنا، فسألتني: «مش هتنام؟»، فقلتليها: «هقرا شوية الأول»، فقالتلي: «أنا هانام»، ونامت فعلاً، فما عرفتش أقرا، ولا أنام، وفضلت أبص لوشها والغطا اللي منراح من عليها، وسرحت في كل حطة منها، كل شيء كان له معنى جمالي يخصه، حتى الضوايف الملونة.

كانت قالتلي إنها هتعددي عليّ الصبح.

الصبح السما كانت بتمطر، وفضلت واقف في الشباك أستناها. كنت خايف عليها من البرد.

لما دخلت أول مرة شقتي في وسط البلد، قريب من ميدان الأمم المتحدة، كانت شايلة أصرية زرع في

أيديها، ودخلت الشقة تدور على مكان تحطها فيه. كان شكلها سعيدة، والزرعة كما كانت سعيدة، وعينيها كانت بتلمع. وصتني قبل ما تمشي إني آخذ بالي من الزرعة، فقلت لها إني هاسمعاها مزيكا كل يوم.

كان جمالها بينعكس على كل حاجة. كل حاجة في المدينة فجأة بقت جميلة، حتى الأماكن اللي كنت باحس فيها بالحزن لما باروحها. كل المدينة بقت مراية ليها، فنورت وبقّت كل حاجة فيه بتبرق: انعكاس الإضاءة الذهبي على العمارات، والشجر والشوارع، وحتى الناس كانت فرحانة وبتضحك. قعدنا في حديقة يونيون سكوير، وقلعت لبسها عشان تتشمس، والحمام كان طائر فوقنا على ارتفاع منخفض، وبيمر فوق راسنا، من كتر ما كنت فرحان عينيّ دمعت. سألتني: «مالك؟»، قلت لها: «خايف أفقدك!»، قالتلي: «مش هتفقدني». حطيت أيديّ على رجليها، وحسست عليهم كأني باتحسس تمثال مرمر. ضحكت، وسألتني: «بتفكر في إيه؟»، قلت لها: «باخاف على الجمال يروح مني»، قالتلي: «ليه بتفكر في اللي ممكن يحصل؟ خيلنا عايشين في دلوقت، ولما يبجي اللي جاي هنعيشه بحلوه وبمُره. قولي حاجة تضحكني»، ما قلتش حاجة، لكن ضحكت فضحكت معايا.

فتحت عينيّ فلقيتها جنبي. قلت لها: «هاجهز حاجة ناكلها». حطت أيديها على أيديّ. قالتلي: «خليك معايا»، فضلت. كأنها كانت عاوزة تقول حاجة لكن ما قالتش. ونمنا من تاني، وخرجنا نفطر.

قالتلي إنها هتنقل لولاية تانية. رسمتلي وردة كبيرة على حيطه مبنى قديم، وقالتلي: «دي عشانك»، وباستني ومشيت. المدينة بقت حزينة، والمزيكا سكتت فجأة. فضلت أكتبها إيميلات أحكيها فيها عن التغيرات اللي حصلت للمدينة بعد ما مشيت، وإزاي بقي وجود المدينة في خطر بعد ما تسرب الحزن ليها، والشمس ما عادتش بتيجي على مبانيها، والناس بقت مكشرة. في الأول كانت بتترد بسرعة عشان تعرفني إنها هتزرورني قريب، بعدين بدأت الردود تتأخر، لغاية ما بطلت ترد. بقيت أروح متحف الفن الحديث وأقعد، أبص على كل البنات اللي بيعدوا، يمكن ألاقى واحدة شبهها، وأقرب منها وأنا بافكر إنها يمكن تكون رجعت، لكن مهما كانت درجة الشبه كنت بسرعة باكتشف إنهم مش هيّ.

رحت في يوم كافيه براغ، البنت اللي بتشتغل في الكافيه قالتلي: «هيّ مش هتيجي النهارده، لكن ممكن تسيلها رسالة على الحيطّة تقراها لما تيجي».

وبقيت باعمل كدا فعلاً، كل يوم أكتب رسالة وأروح أحطها على لوحة رسائل المحبين. في البيت الزرع اللي كان اتعود يسمع مزيكا بقى حزين هوّ كان لما منعت عنه المزيكا، وبدأ ورقه يصغر ويصفر وبعدين يجف ويقع.

في كافيه براغ قلت للبنت الجميلة اللي شغالة هناك: «إذا شفيتها قوليلها إني باحاول أساعد الزرع إنه ما يموتش، لكن بدون فايده، وإني خايف عليه من الموت، فاهمة أقصد إيه؟ الزرع حزين لأنها مشيت»، قتلها وابتسمت البنت في الكافيه، وقالتلي إنها هتكتبها رسالة تطلب منها إنها ترجع عشان تنقذ الزرع. لكنها ما رجعتش.

على الرغم من أنني أعترف أنني لا أملك ملكة الكتابة، لكنني قررت اليوم أن أتفصح وأكتب قصة قصيرة عنك على هيئة رسالة لك، فأنت المخاطب والمحكي عنه. اليوم سأقول لك إنك لن تريني مرة أخرى، وإن حدث ورأيتني في أحلامك فابصقي عليّ، ربما مسحت وجهي بعدها لأكتشف أن بصاقتك لم يعد يترك أثرًا ماديًا.

اليوم أكشف لكم، كنا بلهاء وحمقى. هل تذكرين ونحن نجلس بالساعات لنقرأ أشعار «رامبو» و«بودلير»، وشعراء الشفق الإيطاليين، ورسائل حب مدونة في روايات كتبت في نهاية القرن التاسع عشر. الآن لا أكاد أصدق كم كنت أحمق وقتها.

اليوم أتذكر رحلتنا اليومية إلى المكتبة الوطنية بوسط المدينة، نمسك بكتب ثقيلة مغلقة بأغلفة سميكة، ونفوح منها رائحة التراب، كتب لم يحملها أحد لسنوات عديدة، تمتلئ بصور لموتى ملقاة أجسادهم في الشوارع، وجماجم لا تحصى. اليوم أدرك كم كنت أحمق بذهابي معك إلى هناك. إن هذه الزيارات إلى المكتبة الوطنية كادت تقضي عليّ، لقد بدأ وجهي بعدها يصفر، وتبرز عيناى للأمام، كأنهما ستسقطان من وجهي، ويدي بدأت تشقق لتصبح مثل يد هندي أحمر في المائة والعشرين سنة من العمر.

الشيء الوحيد الذي أدين به لهذه الزيارات الخرقاء للمكتبة، أنني برئت بعدها من الرغبة في الذهاب إلى المكتبات، لقد أصابتنى وإلى الأبد برهاب المكتبات.

كان لا بد أن أغادرك، ألا أراك مرة أخرى وإلى الأبد. هل تذكرين ملامح الحزن والشحوب التي كانت ترسم على وجهك يومًا بعد يوم؟ هل تذكرين الحلم الذي حكيت لي بأن يداً مشققة كانت تحيط بعنقك وتحنقك؟ يومها ضمنت يدي لأخفي تشقق اليد، لكن عقدة الذنب التي سيطرت عليّ دفعتنى لأقول لك بحماسة: «هذه اليد قد تكون يدي»، وكشفت لك عن كف اليد المشققة، وأنت بحماسة لا تقل عن حماقتي كشفت لي عن كف يدك المشققة وقلت لي: «ولماذا لا تكون يدي أنا، وأكون أنا من أخقني بنفسى؟».

هل تذكرين ما حدث بعدها؟ هل تذكرين ونحن نجلس أمام المكتبة الوطنية، وأنت تقولين: «لم أعد أتحمل العيش في هذه المدينة! خذني معك؟» وأنا أخذت رأسك على صدري، وداعبت وجهك كقطعة تحتاج إلى الحنان. يومها بكيت كالأطفال، كنت تريدني أن آخذك إلى مكان ما بعيد عن تلك المدينة وعن المكتبة الوطنية، وأنا كنت مشردًا ولا مكان لي، ولا أعرف أين سأذهب بعد أن تنتهي إقامتي في تلك المدينة. لسنوات بعدها ملت نفسي على أنني تخلت عنك. اليوم أعترف، نعم تخلت، لم يكن أمامي حل آخر، كان لا بد أن أختار، إما أن أبقى معك ونصارع الموات معًا، أو أن أعيش. وأنا اخترت أن أعيش، واليوم أعترف أنني لست بنادم، اليوم أعترف بأنني قد برئت منك.

اليوم الجو ربيعي مشمس، وتهب فيه نسيمات هواء رقيقة. هل تذكرين حينما دخل الربيع في ذلك العام من نهاية الألفية الثانية؟ هل تذكرين حينما حلت حماسة على نافذتنا؟ يومها وقفتِ تنظرين إليها من وراء الزجاج كالمسحورة، ومنعتني من فتح النافذة حتى لا أزعجها فتطير، لقد منعتني يومها من تنسم الهواء بسبب تلك الحماسة الخرقاء. أنت بكل بلاهة قلت إن الحماسة ترمز لأمل ما في سلام مؤقت. هل هذه خلاصة قراءتك لـ«رولان بارت»؟ إن كان الأمر كذلك، فاللعنة عليكِ وعليه. قلت لي: «أنت أحمق»، وأنا صامت، وبسبب صمتي تحملت غلق النافذة لأسبوع لتنعم الحماسة بالهدوء، وأنا أراكِ تفتحين النافذة بهدوء لتضعي لها طعامها، وتغلقيها بهدوء من جديد. بعدها حكيت لكِ عن البيت الطيني الذي تربيت فيه، وكيف أن الحمام كان يعيش معنا في ذلك البيت ويحلق فوق رؤوسنا، فقلت لي ببلاهة: «يا للروعة!»، وأنا قلت لكِ إنني كنت أستمتع بمطاردة الحمامات لتطرن من فوقي، فإن أمسكت بواحدة منها أخذتها لجدتي لتذبحها لي فأعشى بها، فقلت لي: «أنت دموي من يومك»، وأنا واجهتكِ بالحقيقة المرة: «ليست الحماسة ما سيجلب الأمل إلى حياتنا. نحن فقط يمكننا أن نفعل ذلك»، وفتحت النافذة لأدفع الحماسة بيدي لتطير. أنتِ بكيتِ يومها كثيراً، كأنني قمت بطعنك، لكنني لم أشعر بالذنب. كان لا بد أن أدفعك للتخلص من الوهم، وهم أنه كان هناك شيء أفضل مما كنا نعيشه أو أفضل من نافذتنا التي كانت تجلب لنا الهواء الربيعي المنعش.

مقطع رقم ٣

أنا أعترف أنني تأثرت لأول مرة وأنت تقرئين لي قصيدة «الغريب» لـ«بودلير»، وعاهدت نفسي على التعمق في قراءته. في صباح اليوم التالي ذهبت إلى المكتبة الوطنية، واستعرت الأعمال الكاملة لـ«بودلير»، واتجهت إلى الحديقة العامة، وجلست أمام بحيرة البط. كان البط هادئاً على غير عادته، فانهمكت في القراءة، وتوقفت عند قصيدة «الجمال» لـ«شارل بودلير»:

أنا رائعة أيها البشر، كحلم قُد من حجر، وصدري تهافت عليه موتاً، كل واحد بالتناوب، خلق ليوحي للشاعر حباً أبدياً وأخرس كالمادة.. أتوَج في اللازورد، أبا هول غامض السرِّ، أجمع في بهائي بين قلب من ثلج وبياض ناصع، أمقت الحركة التي تغير السطور، وأبداً، لا أضحك، وأبداً لا أبكي، والشعراء إزاء مواقف العظيمة، التي أظهار باستمداها من أشمخ الأنصاب، سيستهلكون أيامهم في الدراسات المتزمتة، إذ عندي من المرايا الصافية ما يجعل كل الأشياء أروع: عيناى الواسعتان ذواتا الضياء السرمدي، كي أفتن هؤلاء العشاق الخنوعين.

فجأة اتصلت بي، وسألتني عما أفعل. حكيت لكِ، فقلت لي: «أنا أيضاً بدأت اليوم بقراءة بودلير من جديد. هل استوقفتك قصيدة ما؟ دعني أخمن.. قصيدة «الجمال»؟».

اندهشت. قلت لي إنك توقفت عند نفس القصيدة قبل أن تتصلي بي، وأضفت: «أنا لن أكون إلا لك». هل تعرفين لماذا أحكي هذه الحكاية اليوم؟ أنا أحكيها لأتذكر مدى البلاهة التي كنا ننعم بها. هذا الشعر الذي كنا نقرأه سمّم حياتي، واستغرق الأمر مني سنوات لأبرأ منه. أما نحن فقد كنا بلهاء وحمقى ونستحق أن يكتب الفراق علينا، ولا أشعر الآن بالأسى أن هذا قد حدث.

مقطع رقم ٤

هل تعرفين، على الرغم من أنني قد قررت أن أتخلص من أي شيء يربطني بكِ إلى الأبد، لكن اليوم سمحت لنفسني بمساحة ما من الحنين. كنت قد استيقظت، وأعددت القهوة، وجهزت الإفطار، لكنني لم أتمكن من تناوله، وشعرت بتكاسل أن أسخن اللبن لأشرب قهوتي باللبن وشربتها سوداء. هل تعرفين، اليوم تذكرت حينما كنت تستيقظين في الصباح، وتتسحبن عارية من الفراش لتخبزي الكرواسون في الفرن، وتضعي القهوة على النار، بينما أنعم أنا بلحظات أخيرة من النوم العذب، لأستيقظ بعدها على صوت أم كلثوم تغني: «أراك عصي الدمع». لم أستمتع بصوت أم كلثوم كما استمتعت به مع تناول ذلك الإفطار الفرنسي وأنت تحكين لي: «في طفولتي دائماً ما أحببت مشاهدة أم كلثوم على قناة «فرانس ٢»، وهي تغني ملوحة بالمنديل في يدها. كان مشهداً جميلاً»، وتسأليني عن معنى الأغنية، فأترجم لكِ أنها تتحدث عن الرغبة في البكاء وعدم القدرة عليه، فتبكين، وأحتضنك، فتضحكين وأنت تواصلين البكاء. هذا الحنين لا بد من بتره، وعليّ أن أدرك، لطالما منعتني حساسيتك الفرنسية تلك من العيش بعد فراقك، فاللعنة على تلك الحساسية المفرطة، وسأتناول الآن قهوة سوداء مضاعفة لأستيقظ من ذلك الحنين الذي لا معنى له.

مقطع رقم ٥

هل تذكرين القُبلات؟ تلك القُبلات الممتدة والمتلاحقة، والتي ما إن تنتهي حتى نبدأ في التقبيل من جديد؟ لم تكن القُبلات تعترف بالمكان أو الزمان، كانت تحدث فقط. كنتِ تنظرين تجاهي، فأنظر تجاهك، وبدون مقدمات أو كلمات نشرع في التقبيل: في الشوارع، في المقاهي ونحن نشرب القهوة، في المطاعم ونحن نتناول العشاء... لم تكن تلك القُبلات محرمة في أي مكان. اليوم حينما أمشي في تلك الشوارع أو أدخل تلك المقاهي أو المطاعم، أشعر بأن هذه القُبلات تطاردني، ولا أتحمّل البقاء، كأن القُبلات تطالبنني بأن أحكيها، وها أنا أحكيها، علّها تتوقف عن مطاردتي. هل تعرفين، إن تقابلنا مرّة أخرى لن أترك نفسي لكِ ولن أقبلك، وأنا أعاهد نفسي على ذلك. لن أسمح لللعنة القُبلات تلك أن تستمر إلى الأبد.

مقطع رقم ٦

كنتِ تعرفين أنني أفضل أن نقضي أوقاتنا معاً، ومع ذلك لم أعترض حينما أخبرتني أننا سنذهب إلى عيد ميلاد صديقة فرنسية. كنتِ تعرفين أغلب من في الحفلة، وكنت أنا غريباً. شيء ما جعلني أتخلص من شعوري بالعربة. ما من مرّة نظرت إليك فيها، إلا وجدت عينيك تنظران إليّ، وتبتسمين ابتسامة عذبة تزيل عني التوتر وتجعلني أبتسم، لكن شيئاً ما عكر صفو تلك الليلة، وكان بمثابة نذير شؤم: اقترب مني شاب إيطالي، كان قد تمكن من فك طلاسم النظرات، وسألني مشيراً إليك: «صديقتك؟»، فأومأت إيجاباً، فقال: «كن حذراً، الفرنسيات كنجوم السماء، نسعد بالنظر إليهن، لكننا نحترق إذا اقتربنا منهن». كانت كلماته نذيراً بأنني في طريقي للاحتراق في سماءك العاشقة، أو ربما أكون قد احترقت بالفعل.

استغرق الأمر سنوات عديدة قبل أن أقابل صديقًا إيطاليًا يعيش في باريس، وحكيت له أنه لولا صداقته، لقاطعت كل الإيطاليين بسبب ما قاله لي ذلك الإيطالي الأخرق في تلك الليلة، حينما رأي أنظر إليك، فقال لي صديقي الإيطالي الفرنسي: «لا يمكنك أن تحمل الإيطاليين جميعًا خطيئة إيطالي واحد لم يُجد الاستعارة. أنا سأقول لك استعارة أخرى: الفرنسيات يا صديقي مثلهن كمثل القمر، يصعد الإنسان إليه، ثم يهبط عليه، ثم يعود إلى الأرض مرّة أخرى، ويحتفي الناس الذين لم يذهبوا إلى القمر بعودته، فلنشرب إذن نخب عودتك إلى الأرض بالسلامة».

المقطع رقم ٧ والأخير

كنت قد وضعت خريطة العالم على طاولة الطعام، وأشرت إلى فرنسا، وقلت: «نحن هنا الآن، وأنا أمامي رحلة واحدة لأقوم بها»، وأخذت تشيرين بإصبعك على مواضع مختلفة: «قد تكون إلى أمريكا، أستراليا، أندونيسيا، غانا، أو مصر... لكن بعد هذه الرحلة قد لا أعود إلى هذا البلد. هذه الطبيعة الفرنسية ستقضي عليّ». فهتمت مغزى اللعبة الذهنية التي كنت قد شرعت فيها، وفكرت: «ماذا تظن هذه الفتاة الفرنسية أننا سنفعل بمصر؟ سنكون مجرد اثنين من الحمقى يعيشان وسط حياة قاسية لا ترحم أحدًا». لم يكن لديّ أدنى شك أنني سأكون بلا عمل ولا مأوى حينما أعود. قلت بعصيتك المعتادة في مثل هذه المواقف: «أنا الآن أعرف أنك لا تريد أن تعيش معي!». حاولت أن أجد مخرجًا من هذا المنعطف الخطر، قلت لك: «أمهليني حتى أعود وقد تتحسن الظروف»، فرددت: «إما أن أسافر معك الآن، وإلا لن أسافر إلى مصر أبدًا». فكرت أن ألعب معك لعبة من ألعابك الذهنية: «لنفترض أننا لم نتقابل لعدة سنوات، ثم تقابلنا بعدها صدفة، قد نعود كما كنا، وربما أفضل بدافع من الحنين»، فقلت: «وقد لا نتعرف على بعض بعدها أبدًا».

هل تريد أن تعرفي ماذا حدث بعد ذلك؟

حينما عدت كان الجو ربيعياً، وكنت أقيم بفندق «سويس إن»، ووقفت في بلكونة غرفتي أنظر إلى العابرين بالشارع، والذين يحملون أكياسًا بلاستيكية بأيديهم، وسمعت صوت أجراس الكنيسة المجاورة، فقررت أن أخرج لأشعر أنني قد عدت. ذهبت إلى بائع الجرائد بوسط المدينة، واشترت جريدة «لوموند»، فاستوقفني رجل عجوز يرتدي بدلة أنيقة، وسألني: «هل أكلت من الشجرة المحرمة؟»، فقلت له بدون تفكير: «نعم، أكلت»، فقال لي: «قلبي معك، ستعاني كثيرًا ذلك الإحساس بأنك قد طُردت من الجنة»، وتركني الرجل وانصرف بعد أن اشترى النسخة الأخرى من الجريدة الفرنسية. لوهلة، لم أصدق إن كان هذا الحوار قد حدث بالفعل، أم أنه قد هُيئ لي، وظللت أسير بلا هدى في شوارع المدينة القاهرة، حتى وصلت إلى سور حديقة الحيوانات، وهناك بدأت الطيور جميعًا في إلقاء مخرجاتها على ملابسي، وبذلك انتقمت مني للحمامة التي أبعدها عن النافذة ذات يوم.

وأنا في إعدادي جاتلنا مُدرسة إنجليزية من المحلة اسمها «زوزو». كانت جميلة بشكل مغوي بالنسبة لمراهقين ريفيين زينا، وكانت بتلبس قصير وتحط ميكياج، وكانت بتشرح شوية وبعدين تقعد على كرسي بدكة مواجهة لينا قدام الدكة الأولانية للصف اللي في النص، وحصل اتفاق ما بين التلاميذ إن كل واحد يقعد على الدكة دي يوم، ويرمي القلم وينزل يجيبه. كان اكتشاف الأثوثة اللي في الأستاذة زوزو شيء أكبر من الخيال، وشخصياً لما رميت القلم ونزلت أجيبه ما كنتش عاوز أطلع ثاني، وقلبي كان بينبض بسرعة لدرجة إني كنت سامع صوته، لغاية ما في يوم كان الدور على عيد اللي كان معروف بخفة دمه وضخامة جسمه، وكان أهله عندهم أكبر محل جزارة في البلد. عيد ما استحملش اللي شافه، وعاز يلمس، وقام هجم على الأستاذة زوزو طرحها أرضاً، واتلم كل المدرسين في المدرسة عشان يبعدوا عيد اللي انتابته نوبة هياج زي هياج التيران، وهنا فقدنا زوزو للأبد، وتم مد عيد على رجله بالخرزانة في معركة شارك فيها أغلب مدرسين المدرسة.

من يومها ما بقاش عندنا مُدرسة إنجليزية، وبقى منهج الإنجليزي بيتوزع على أي مدرس عنده حصص فاضية في الجدول. وأنا كنت بانزل المحلة أشترى كتب وأتمشى، فعديت على شارع الصاغة، وهناك شفت زوزو واقفة في محل من المحلات، وعرفت إنه محل أبوها، وعرفتني وكانت لطيفة جداً معايا، وعرفت إنها ما عاديتش مهتمة بموضوع التدريس، وبقيت أعدى عليها في المحل أسلم عليها كل ما أنزل المحلة، وأتأمل في جمالها اللافت للنظر.

المهم إن مفيش حد من أساتذة المواد الاجتماعية أو التاريخ قدر يملأ الفراغ اللي سابته الأستاذة زوزو، رغم إننا كلنا كنا بناخذ الدرجات النهائية.

وفضلت مش مهتم بالموضوع دا، لغاية ما قعدت مع أبويا ووالي أقوله حاجة من الحاجات اللي اتعلمناها في الإنجليزي فما عرفتش، فعملي امتحان طلعت مش عارف حاجة. يومها خدني من إيدي للأستاذ سيد، وقاله يعلمني. الأستاذ سيد كان من الجيل اللي اتعلم في مدارس الإنجليز، وكان معاه ابتدائية قديمة، وكان موظف على المعاش بعد ما كان بيشتغل عامل في شركة مصر للغزل والنسيج، وكنت باشوفه أحياناً رغم إن سنه معدي السبعين وهو ركب عجلته اللاري وجاي من المحلة جايب الجورنال، وكان بيلبس جلابية كحلي غامق ما بيغيرهاش، وكان طويل وبكرش وعنده شنب صغير زي شنب هتلر، وفي الأول كان مضحك بالنسبالي، لكن بعد شوية لما بدأ يعلمني النطق اكتشفت إني ما اتعلمتش حاجة في المدرسة. وكان بيتعصب عليّ ساعات، وساعات تانية كان بيعتني أشتريله حاجات من البقالة، وكان الموضوع دا بيضايقني، لكن بعد شوية بدأ يكلمني عن الأدب، وتحديدًا «تشارلز ديكنز» اللي كان معجب بيه بشكل شخصي، وخلاني أهتم إني أقراه، وفي يوم قالي: «زمان كان فيه جدع شغال معانا في المصنع اسمه صلاح أبو سيف، وكان راجل ظريف، بس كان بيحوش كل قرش بيجيله، واختفى وبعدين لاقيناه بقى مخرج وبيعمل أفلام

وبطل يسأل علينا». قالي إنه شاف كل أفلامه، وإنه بيعمل أفلام بتحكي عن الناس البسيطة اللي زينا. كانت دي أول مرّة أعرف معلومة إن فيه واحد بيعمل الأفلام ويسموه مخرج، وقالي: «لو شديت حيلك واجتهدت ممكن تبقى زي صلاح أبو سيف». ومن يومها بقي كل ما ييجي فيلم لصلاح أبو سيف في التلفزيون أقعد أتفرج عليه، وأبويا يقولي: «قوم ذاكر»، فأقوله: «لأ، دا فيلم لصلاح أبو سيف، ولازم أتفرج عليه».

مش عارف إمتى تحديداً ابتدى عندي موضوع الهوس بتجفيف الورد. كل اللي فاكراه إن أبويا في ابتدائي جابلي هدية سلسلة كتب من «المكتبة الخضراء»، وبهرتني حكايات النبلا والأمرأ اللي بيقدموا لحبيباتهم ورد وهُمّ بينحنوا قدامهم في تقدير لجمالهم.

ما كانش وقتها فيه أكشاك بتبيع ورد، بس كان فيه أمرأ ونبلا، وكانوا عايشين في بيوت فيها ورد وفل وياسمين، فبقيت أعدي جنب أسوار البيوت وأستنى اللحظة المناسبة اللي محدش يشوفني فيها عشان أقطع الورد، وكنت أدور على البنت اللي تستحق الورد من نبيل صغير زيي فما لاقيهاش.

في يوم وأنا ماشي، وكنت في إعدادي، حصل إني لقيت الأميرة اللي كانت شبه الأميرات اللي كانت في الحكايات اللي كنت باقراها. كانت ماشية لابسة فستان مزين بالورد، وماشية جنبها مربية لابسة فستان أسود. اللون الأسود إدى حالة إجلال للمشهد. وقتها اتمنت لو كانت معايا وردة أديهاها وأنا بانحني في إعجاب، لكن ما كانش فيه ورد معايا. بعدين عرفت إن دي يمكن كانت الصدفة الوحيدة إني أقابلها، لأن في باقي الأيام كانت الأميرة الصغيرة بتركب سيارة خاصة بتوديعها مدرستها الخاصة وبتعزلها عن إنها تقابل أبناء العوام اللي زيي.

من وقتها بقت أميتي الوحيدة إني أقابلها مرة ثانية بالصدفة، وأديها الورد وأنحني قدامها وأختفي، وبقيت مستعد دايمًا بوردة في شنطة المدرسة، لكن ما ظهرتش تاني، وبقيت أرمي الورد كل يوم في ضيق. كان جفاف الورد في الأول بيحسني بحالة من الموت، وكنت دايمًا باحاول أتخلص منه قبل ما يبدأ يدبل ويموت.

في يوم اتعرفت في درس الرياضيات الخاص على بنت في نفس سني بتلبس لبس شبه الأميرات، ووافقت إنها تمشي معايا بعد الدرس، وفكرت إنها تستحق إني أهديا وردة، لكن عرفت منها إن عندها حبيب بيديلها وردة كل ما يتقابلوا بتخفيها في وسط كتبها لغاية ما الوردة تجف. وكانت هي سبب إلهامي بفكرة تجفيف الورد. ومن وقتها بقيت كل يوم أقطف وردة، وآخر النهار بعد ما اخلص قراية أحطها في الصفحة اللي وقفت عندها، وبقي الورد المجفف هو علامات في صفحات الكتب.

بعد وفاة جدي، وفي يوم وأنا في ثانوي أبويا طلب مني إني أروح مشوار، واداني عقد إيجار الأرض اللي كنا مستأجرينها من أيام جدي من أحد الأمرأ، وطلب مني إني أروح أديهوله لأننا ما عدناش هنزرع الأرض. كان ممكن نحتفظ بالأرض ونأجرها من الباطن، لكن لأن أبويا كان نبيل في تصرفاته كان بيرفض النوع دا من السلوك، وشاف إن ما دام مش هنزرع الأرض فلأزم نرجعها لأصحابها.

وفعلًا رحب بطيب خاطر، وخبطت على باب بيت الأمير اللي كنت أعرفه لأني دايمًا كنت باقطف ورد خلصة من على سور، وفتحت الباب المربية ذات الرداء الأسود، وقتلتها إني جاي للأمير أوصله أمانة، فدخلتني وقعدتني في الجنية اللي كانت مزروعة بالورود والريجان والنباتات والأعشاب، وخرج الأمير

وقعد معايا، وطلب من المربية إنها تعمل شاي، واديتله العقد، فقالي أشكر أبويا، وقالي إن محدش بيعمل دا. ولما جت المربية بالشاي قطف نعناع من الجنية وحطه في الشاي، وقالي: «النعناع لما بنستخدمه بيتعش وييحس إننا مهتمين بيه فيكبر، زيه زي الورد لما بنقطف وردة بيطلع مكانها فرع فيه براعم لورد أكثر»، وحسيت إنه بيلمح لسرقتي للورد من سور جنيته، وفي اللحظة دي خرجت البنت اللي دايمًا حلمت إني أديلها الورد، قطفت لنفسها وردة من الجنية ودخلت البيت وحطت الوردة جوه فإزة فيها ميه، وعرفت إنها مش بحاجة لوردة مني.

انتهى تعليمي الثانوي، وانتقلت للدراسة بالمدينة، وهناك بدأ إغواء مقابلة البنت اللي هاديلها الوردة يكبر، لكن بنات المدينة كان أغلبهم من الأميرات، وعلمتني المدينة إن الأميرات ما يبصوش لأبناء العوام زيي. وبدت أجفف الورد بالطريقة المعتادة، وبدأت أتخلي عن فكرة البنت اللي هاديلها الوردة وأحتفظ بيها لنفسي، لكن في يوم حصل إن قابلتني بنت جميلة وسألتنني وهي بتتسم: «الوردة دي عشاني؟»، وحسيت بنوع من السخرية مني في سؤالها، فرديت عليها بجدية: «لأ، دي عشاني».

ومن يومها بقيت أتعايش مع فكرة إني أشتري الورد عشاني، وما امشيش بيه تفاديًا للسخرية. ولأني بدت أمل القرية، بقيت أشتري أواني من الإزاز أقطف فيها ورق الورد وأحطه لغاية ما يجف، لغاية ما بقى الورد المجفف بيحاوطني في كل مكان، وبقت ريحة الورد ما بتغادرش أنفي مهما كان المكان اللي فيه، وبقى الورد المجفف هوسي الخاص اللي كان بيخليني أتغلب على كل صعاب العيشة في المدينة، وخلا عندي القدرة على إني أكمل السير في مساري اللي مكتوبلي إني أمشي فيه.

الحكاية بتقول إنها كانت ساكنة في وسط البلد، وأنا كنت ساكن في مصر القديمة. الحكاية بتقول كمان إني أول مرّة شفتها كانت في بيتها، كانت لسه ناقلة، وصديق مشترك قالي عاوزة حد يساعدها، وإنه مش هيعرف، وسألني إذا أقدر أساعدها. ما كنتش عارف حتى شكلها عامل إزاي، لكن رحى وخبطت على الباب، وبجدية شديدة سألتها أعمل إيه، فبدأت تتعامل معايا كأني شغال عند اللي خلفوها، وتقولي شيل وخط، لغاية ما قتلها: «على فكرة، أنا مش شغال عندك!»، فعيّطت، فحضنتها، وطبّبت عليها، وقتلتها إني متأسف، ومن يومها بقينا أصحاب.

كان عندها بلكونة بتزرع فيها، وأنا كنت ساكن جنب المشاتل في المنيل، ولما عرفتها قالتلي إذا ممكن آخذها معايا.

لما رحنا المشتل أول مرّة، ظهر بوضوح إن اهتماماتنا مختلفة. أنا كنت مهتم بالنباتات والزهور اللي ليها ريحة، وهيّ كانت مهتمة بنباتات الطبخ.

حكّتي عن مطعم بيععمل أكل تايلاندي حلو، فُرْحنا سوا. هيّ طلبت وجبة «توم يام يونج»، وأنا طلبت وجبة «باد تاي».

من يومها بدأنا سلسلة من المراسلات، كانت بتبدأ بـ«من جنائنية إلى جنائنية»، والعكس «من جنائنية إلى جنائنية».

كانت مراسلات متخصصة في حب النباتات. في واحدة من المراسلات دي حكّتي عن زرعة زرعتها اسمها «أمس، واليوم، والغد»، بتطلع زهرة مختلفة كل ثلاث أيام، وحكّتي عن نجاح تجربتها في زراعة الشاي التايلاندي، وإنها لو لاقى تمويل هتعمل مزرعة للشاي، بس لغاية دا ما يحصل عزمّتي أشرب شاي معاها. يومها سألتني: «عمرك ما حسيت إن نفسك تكون زرعة، وتلاقي حد ياخذ باله منك، ولو تعبت يفضل يداويك لغاية ما تحف؟».

يومها خفت.

كنا في التسعينيات، وكانت البلد خانقة، وكنا بنختار أماكن ما بيروحهاش حد نتقابل فيها. كنا بنحب نتمشى في المقابر. نقعد تحت ظل شجرة ونتكلم. كنا دايماً بنحافظ على مسافة كذا مللي ما بينا. وقتها كنت حاسس إن الاحتياج والحب من علامات الضعف الإنساني، وإني مش لازم أحب ولا أعبر عن احتياجي لشيء.

يومئذ سألتني أغلس سؤال في الكون: «أنا بالنسبة لك إيه؟». قتلها: «مش عارف، أو بمعنى أصح لسه مش عارف». قالتلي: «طب لما تعرف ابقى عرفني». ووقفت، فمسكتها من أيديها وقعدتها، وقتلتها: «ما تبقيش غلسة». «مش غلاسة، بس إنت ما بتقولش حاجة، ودا مزعج». «عاوزاني أقولك إيه؟». «تقولي إنك بتحبني». «أنا باحبك». «مش عاوزة أسمعها تقضية واجب». «أنا باحبك مش تقضية واجب». «لو بتحبني بجد بوسني». حاولت، بس ما عرفتش إزاي أبوسها. قرب مننا حارس المقابر، وسأل: «تشربوا شاي؟». فقلتله: «شكرًا. كمان شوية». فقالنا: «أنا هاوقف بره ومش هاخلي حد يدخل، ولما تحتاجوا حاجة اندهولي». قالتلي: «مالك؟». قتلها: «مش عارف». قالتلي: «إنت مش ناقصك المعرفة، لكن ناقصك الشجاعة! أشجعك؟». وما استنتش أرد، فباستني، ومن يومئذ عرفت طعم مختلف للحياة.

٤

اتواعدنا نروح دير. اتقابلنا. اشترينا إزازة ميه معدنية، وباديننا رحلتنا. بالتدرج كانت المدينة بتبعد من ورانا وبنشوف بدل مبانيها مشاهد الجبال والطبيعة الجميلة. طلبت من السواق إنه يقف عشان أصور الدير من بعيد، فوقف ورجعنا كملنا، فوصلنا لحد باب الدير، ووقف العربية وقال: «هاستنى هنا». أول ما دخلنا الدير عدينا على الراهبات بلبسهم الأزرق السماوي وهمَّ بيرحبوا بينا بابتسامة. في بهو الدير قعدنا نتفرج على الأيقونات المدهبة اللي رسمها رسام أصم وأبكم وما اتعلمش رسم زي ما قالتلي، فقلتله: «طبعا، لازم يكون فيه معجزة»، فبصتلي بزعل: «الحاجات دي ما ينفعش فيها هزار، فاهمني؟»، فقلتله: «فاهم»، وسكت. قعدنا في حديقة الدير، وقعدت أبصلها على بعد سنتيمترات قليلة، فقالتلي: «مالك؟ بتبصلي كدا ليه؟»،

فقلتلها: «مفيش، ولا حاجة».

وبعد شوية مسكت الكاميرا وبدأت أصورها: خصلات الشعر المجعد، العينين الواسعين، الشعر الخفيف على الدراعين اللي بيكتسي بلون ذهبي لما تسقط عليه أشعة الشمس، الرجلين المشققة لما قلعت جزمتهما وقعدت حافية. الصورة مفتاح لتسجيل الناس والحاجات اللي بنخاف يختفوا من حياتنا. خلصت تصوير وقعدت جنبها، ولبست النظارة الشمس وسكت. شالت النظارة الشمس من على عيني، ونفخت فيها نفس سخن من بُقها، ومسحتها بقميصها، ورجعتها على عيني.

سألتنى: «شايف أحسن كده؟»، فقلتلها: «آه»، قالتلي: «عشان تعرف تشوفني كويس». نزلنا الجبل على رجلينا، وقعدت تجمع خوص النخل اللي مرمي على الأرض بعد ما جف، وتمد إيديها على الزهور البرية من غير ما تقطفها، وتشيل الورود المرمية على الأرض وتحطها في كتاب كنت اديتها لها هدية. رجعنا، وكان سواق العربية الأجرة نام، فصحيتة وقلتلها: «يلا بينا». في الطريق واحنا راجعين ما اتكلمناش كثير، وكنا تعبانين، ونامت على كتفي، فبصيت عليها كثير. يومها حسيت إحساس وحش، إننا ممكن نفترق.

٥

زرتها في شقتها، وكانت معلقة إعلان دوا على الحيطه. في الإعلان كان رمسيس الثاني قاعد قعدته الشهيرة، وحاطط إيداه على بطنه قدام معبد أبو سمبل، وكان ضاغط على بطنه بشدة، وباين عليه إنه بيتألم، ووشه مقلوب بسبب مشاكل المعدة اللي كان بيعاني منها. بصيت على الإعلان وقعدت أفكر: الله، هو رمسيس الثاني أكل إيه عشان يعاني المعاناة دي كلها؟! وأنا بابص على الإعلان جابتلي فنجان القهوة اللي عملتهولي.

سألته: «وانتي؟».

قالتلي: «أنا لأ. الصبح كلت علبة زبادي، وبعدين كلت حطة بسكويت، فمعدتي اتقلبت تاني».

قلتلها وأنا مستغرب: «تاني؟!».

«دا اللي حصل».

شربت قهوتي.

قلتلها: «ما تيجي نخرج؟».

«هنروح فين؟».

«مش حطة معينة، هنتمشي بس».

جهزت نفسها وخرجنا.

٦

قالتلي: «من كام يوم شميت ريحة حريقة في الهواء، كانت تقريباً في كل مكان، وكانت السماء سودا». «في كل سنة في التوقيت دا بالذات الفلاحين بيحرقوا قش الرز». «آه. فهمت. المشكلة إنها ما كانتش السحابة السودا بس، فحتى مع السحابة السودا الإنسان ممكن يعيش ويفرح ويضحك». «أيوه طبعاً، الحياة فيها حاجات تانية غير السحابة السودا، لكن إنتي فيه حاجة مضايقاكي؟». «هاقولك بعدين». «وفضلت مستنيها تقول وما قالتش».

٧

قعدنا على قهوة الحرية، وطلبنا اتنين شاي. «يالاً بقى قوليلي». «فاكر لما كنت بتتصل بيّ في المكتب وما كنتش بارد عليك إلا بعد وقت طويل؟». «أيوه، فاكر». «فاكر كنت باقولك إيه؟». «قلتها: «كتتي بتقوليلي معلش كنت في الحمام»، وضحكت. قالتلي: «كان وقتها عندي إسهال مزمن مش عارفاله سبب»، وسكتت. سألتها: «وبعدين؟». «من كام يوم عملتها على نفسي، ومش بس كده، أنا كملت اليوم عادي وما خدتش بالي إلا لما خرجت من المكتب». «بتتكلمي جد؟! عملتها على نفسك?!». «آه والله باتكلم جد جداً. وزمايلي في المكتب شافوني، ويمكن شموا الريحة اللي ما تسرش عدو ولا حبيب، وعملوا نفسهم مش واخدين بالهم، ومحدش هان عليه ينبهني. متخيل إني مشيت في الشارع وركبت مواصلات وهدومي مبقعة وريحتي وحشة?!». «حاجة صعبة فعلاً! وعملتي إيه؟». «عاوزني أعمل إيه؟! كلمتهم في المكتب وقتلهم إني مش رايجة الشغل بعد كده، وعملت حاجة تانية كمان». «عملتي إيه؟». «رحت شركة سياحة، وحجزت تذكرة سفر. أنا مسافرة بكرة ومش ناوية أرجع تاني». «كده فجأة?!». «أنا مش قادرة أعيش هنا! فاهمني؟ وعمري ما هاقدر أقبل فكرة إن حد في البلد دي شافني وأنا عملاها

على نفسي!». على نفسي!

شربنا الشاي، وبصت على جزمتي، وسألتني: «مش عاوز تلمع الجزمة؟».

«آه، هالمعها».

ناديت على اللي بيلمع الجزم في القهوة، وخذ جزمتي، عدى القهوجي بعد كده، فنادتله.

«هتعملي إيه؟».

«هاحاسب».

وأصرت إنها تحاسب فعلاً.

«دلوقت لازم أمشي، لأنني حاسة إني ممكن أعملها على نفسي تاني».

واحنا ماشيين في الشارع وقفت عند كشك السجاير واشترتلي علبة سجاير.

«مالك كريمة كده النهارده؟!».

«مش كرم. أنا مش راجعة تاني قلتك، ومش هاحتاج الفلوس دي تاني بعد كده».

رجعنا شقتها. دخلت تجري على الحمام وسابتني واقف تاني قدام إعلان دوا المعدة، وفضلت أبص

لرئيس التاني وأضحك وعيني دمعت.

أنا أحبك بدون ولكن

رسالة: في بعض الأحيان كنت تريد أن تقول لي: «أنا أحبك، ولكن...». لكن «ولكن» تمحو «أنا أحبك». في الحب لا يوجد «لكن» أو «إذا» أو «متى». إن الحب يظل هناك، ودائمًا. لا بداية له ولا نهاية. إنه الحالة اللامشروطة للقلب. ليس الشعور الذي يأتي ويذهب في نزوة من العواطف. إنه هناك في قلبنا، جزء من قلبنا، ونحن نطعم به كل أطراف وخلايا أجسادنا.

الحب يغير دماغنا، والطريقة التي نتحرك بها ونتحدث بها. الحب يعيش في أرواحنا وينعم على وجودنا كل يوم، حتى الموت.

أن تقول: «أنا أحبك، ولكن...»، معناها: «أنا لم أحبك على الإطلاق». أقول هذا لك الآن: «أنا أحبك، بلا بداية، ولا نهاية. أنا أحبك كما لو أنك قد أصبحت عضوًا إضافيًا ضروريًا في جسدي. أنا أحبك فقط كما يمكن لفتاة أن تحب صبيًا. بلا خوف، ودون توقعات. لا أريد شيئًا في المقابل، سوى أن تسمح لي أن أحتفظ بك هناك في قلبي، لأتعرف دائمًا على قوتك وعينيك وروحك التي أعطتني الحرية وسمحت لي أن أطيّر».

الفراغ هو

كل مكان

لا تحضرين فيه.

عن المؤلف

حسام علوان، مواليد ١٩٧٢، تخرج من المعهد العالي للسينما، وحصل على ماجستير في دراسات السينما من جامعة سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة، كما درس الإنتاج السينمائي في مؤسسة الرواد السمعيين الأورويين ومقرها لوكسمبورج. كتب القصة والنقد السينمائي في بدايات حياته، وحاز جائزة الدولة للإبداع سنة ١٩٩٨. تنقل بين دول ومدن عدة خلال حياته بحكم عمله في مجال السينما، وعمل باحثاً في مجال الأفلام التسجيلية، كما ساهم في إنتاج عدد من الأفلام المصرية والعربية. ويُعد هذا الكتاب أول كتبه المنشورة.